ذخائر الفكر الإسلامي

١

مبادئ الإسلام

تأليف

أبي الأعلى المودودي

الطبعة الثالثة

الناشر

مكتبة الشباب المسلم

دمشق - ص . ب ٥٥٦

ذخائر الفكر الإسلامي

مبادئ الإسلام

تأليف

ابي الأعلى المودودي

ترجمة

محمد عاصم الحداد

الطبعة الثالثة

الناشر

مكتبة الشباب المسلم

دمشق - ص . ب ٥٥٦

ذخائر الفكر الاسلامي ـ ١

ا

الطبعة الاولى : ١٣٧٣ — ١٩٥٤ — ٣٠٠٠ نسخة
الطبعة الثانية : ١٣٧٦ — ١٩٥٧ — ٤٠٠٠ نسخة
الطبعة الثالثة : ١٣٨١ — ١٩٦١ — ٥٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم

تقـديم

هذه رسالة ألّفها الاستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ، قبل بضع عشرة سنة ، للقراء عامة ، ولتلاميذ السنوات الاخيرة من المدارس الثانوية الجديدة خاصة .

والذي جرت عليه عادة المدارس الثانوية والكليات الجـديدة عندنا ، في تعليم الطلاب أمور الدين ، أنها تلقنهم طائفة من المسائل الفقهية ، كمسائل الصلاة والزكاة والصوم الخ .. على النحو القديم الجاف ، ولا تهتم الا قليلا بتعريفهم عقائد الدين ، وما يدعمها من الحجج والبراهين ، وما فيها من الحكم والاسرار ، حتى إن الطالب عندما يتخرج من المدرسة او الكلية لا يكاد يعرف ما هي حقيقـة الاسلام ؟ وماذا يريد من الانسان ؟ ولماذا يريـده ؟ وما هي علاقـة عقائده بالحياة الانسانية ؟ وما هو نفعها اذا قبلها ، أو ضررها اذا رفضها ؟ وهل يريد الاسلام أن يفرض هذه العقائد على الانسان بدون أي حجة ، أم عنده ماينهض حجة على صحتها وصدقها ؟

ومن الظاهر أنه لا بد من هذه الامور كلها لفهم الدين وإصلاح العقيدة ، فما لم ترسخ هذه الامور في ذهن الانسان ، وما لم يعرفها

حق المعرفة ، فانه لا يكاد يتمتع بأي فائدة من تعليم المسائل الفقهية، ولا يكاد يطيع أحكام الشريعة على الوجه المرضي المنشود .

وكذلك مما لا بد منه ، قبل أن يلقن الطالب مسائل الصلاةوالزكاة والصوم الخ ، أن يلقى في روعه مافي عبادات الاسلام وأحكام شريعته من الحكم والاسرار والمصالح ، ليستعد لاتباع هذه الاحكام من قرارة نفسه ، وسويداء قلبه . أما طريق أداء الصلاة وتعليم التفاصيل المتعلقة بها ، فانما يفيد من كان مستعداً لأدائها. وأما من كان لايرضى بالصلاة أصلا ، ولا يريد أداءها ، فأي فائدة تعود عليه اذا شرعت تعلمه طريق أداء الصلاة وتؤنبه على تركها ؟ الحاجة شديدة قبل أن تبين للطالب أحكام الصلاة ، الى أن تبين له ما هي الصلاة في حقيقة أمرها ، ولماذا فرضها الله عليه ، وما نفعها اذا أداها ، أو ضررها اذا أضاعها ؟ ولك أن تقيس على ذلك أحكام الشريعة الاخرى أيضا .

وقد ألف الاستاذ المودودي هذه الرسالة ، واضعاً أمام عينيه هذه الحاجة الملحة ، ونحا فيها نحواً جديداً لتعليم عقائد الاسلام وأحكام الشريعة ، وهو مختلف الى حد بعيد عن طريق التعليم القديم، وأقرب ما يكون لذوق الناس في هذا الزمان .

وقد ظهرت من هذه الرسالة الى الآن ثلاث عشرة طبعة — في كل طبعة نحو ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ نسخة — بالاردية ونقلت الى الانكليزية والفرنسية وكثير من لغات الهند وباكستان الاهلية . وها نحن أولاء نتشرف بتقديمها الى القراء الكرام بعد التعريب ، عسى أن تنال

الحظوة بين الناشئة الاسلامية في بلاد العرب ، وأن تتبعها الرسائل الاخرى من هذه السلسلة ان شاء الله .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

لاهور في ١٥ شوال سنة ١٣٧٣ هـ
١٧ يونيو سنة ١٩٥٤ م

كتبه العاجز الفقير الى رحمة الله
محمد عاصم الحداد

الفَصْلُ الأوّل

الإســـــلام

لماذا سمي الدين بالاسلام ــ معنى كلمة الاسلام ــ حقيقة الاسلام ــ حقيقة الكفر مضار الكفر وعواقبه السيئة ــ فوائد الاسلام .

لماذا سمي الدين بالاسلام :

إن جميع ما في الأرض من مختلف الديانات ، قد سميت بأسمائها، إما نسبة الى اسم رجل خاص ، أو أمة معينة ظهرت وترعرت بين ظهرانيها . فالمسيحية مثلا أخذت اسمها من السيد المسيح عليه السلام ، وتسمت البوذية على اسم بانيها بوذا ، واشتهرت الزردشتية باسمها لأن مؤسسها وحامل لوائها كان زردشت . وكذلك ظهرت اليهودية بين ظهراني قبيلة تعرف بيهوذا ، فسميت باليهودية ، وهلم جراً . .الا الاسلام ، فانه لا ينتسب الى رجل خاص ، ولا الى أمة بعينها ، وانما يدل اسمه على صفة خاصة يتضمنها معنى كلمة الاسلام . ومما يظهر من هذا الاسم أنه ما عني بايجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من البشر ، وليس خاصاً بأمة معينة دون سائر الامم، وانما غايته أن يحلي أهل الارض جميعاً بصفة الاسلام ، فكل من

اتصف بهذه الصفة ، من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم ، ويكون مسلماً كل من سيتحلى بها في المستقبل .

معنى كلمة الاسلام :

واذا راجعت معاجم اللغة ، علمت أن معنى كلمة الاسلام هـو « الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض » . وقد سمي ديننا بالاسلام لأنه طاعة لله وانقياد لأمره بلا اعتراض .

حقيقة الاسلام :

من المعلوم أن كل شيء في هذا الكون ، منقاد لقاعدة معينة ، وقانون خاص . فالشمس والقمر والنجوم مسخرات تحت قاعـدة مطردة ، لا قبل لها بالحراك عنها والخروج عليها ولو قيد شعرة ، والأرض تدور حول قطبها ، ولا يدب في ما قدر لها من الزمن والحركة والطريق ، دبيب التغير والتبدل . والماء والهواء والنور والحرارة كلها مذعنة لنظام خاص . وللجمادات والنباتات والحيوانات ضابطة ، لا تنمو ولا تنقص ولا تحيا ولا تموت الا بموجبها . حتى إن الانسان نفسه اذا تدبرت شأنه ، تبين لك أنه مذعن لضابطة الطبيعة إذعاناً تاماً ، فلا يتنفس ولا يحس حاجتَه الى الماء والغذاء والنور والحرارة الا وفقا لقانون الطبيعة لحياته . ولهذا القانون نفسه ينقاد قلب الانسان في حركته، ودمه في دورانه، وتَنَفَسه في دخوله وخروجه، وله تستسلم جميع أعضاء جسده كالدماغ والمعدة والرئة والاعصاب والعضلات واليدين والرجلين واللسان والعينين والأنف والأذن . فليست الوظائف التي تؤديها هذه الاعضاء كلها الا ما قدَّرت لها الطبيعة ، وهي لا تقوم بها الا حسب ما قررت لها من الطريق .

فهذا القانون الشامل ، الذي يستسلم له ولا ينفك عن طاعته شيء في هذا الكون ، من أكبر سيارة في السماء ، الى أصغر ذرة من الرمل في الارض ، هو من وضع ملك جليلمقتدر . فاذا كان كل شيء في السماوات وما بينهما منقاداً لهذا القانون ، فان العالم كله مطيع لذلك الملك المقتدر الذي وضعه ، ومتبع لأمره . ويتبين من هذه الوجهة ، أن الاسلام دين الكون طراً ، لأن الاسلام معناه الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض كما عرفت آنفاً . فالشمس والقمر والأرض مسلمة ، والهواء والماء والنور والظلام والحرارة مسلمة ، والشجر والحجر والأنعام مسلمة ، بل إن الانسان الذي لا يعرف ربه ويجحد وجوده وينكر آياته ، أو يعبد غيره ، ويشرك به سواه ، هو مسلم من حيث فطرته التي فطر عليها . وذلك أنه لا يولد ولا يحيا ولا يموت ، الا وفقاً لما وضع الله تعالى من قانون ، لولادته وحياته وموته . وكذلك كل أعضاء جسده ، لا تدين الا دين الاسلام ، لأنها لا تنشأ ولا تكبر ولا تتحرك الا حسب هذا القانون الالهي نفسه ، بل الحق أن لسانه ، الذي يستخدمه في إبداء آراء الشرك والكفر جهلا وسفهاً ، لا يدين ــ في نفسه ــ الا دين الاسلام . وكذلك رأسه ، الذي يكرهه على الانحناء أمام غير الله ، لا يدين الا دين الاسلام بسائق فطرته التي فطر عليها . وكذلك قلبه الذي يعمره بحب الآخرين من دون الله وإجلالهم جهلا وسفهاً ، إن هو الا مسلم من لدن فطرته وسجيته . فكلٌ قد أسلم لله وانقاد لقانونه .

اذا أدركت هذا فتعال ننظر في الواقع من وجهة أخرى .

للانسان في حياته جهتان مختلفتان :

الاولى أنه منقاد لقانون الفطرة مجبول على اتباعه .

والاخرى أنه أوتي العقل وقوة الفهم والتأمل والرأي ، فهو يسلّم بشيء وينكر آخر ، ويحب طريقاً ويكره غيره ، ويضع من تلقاء نفسه ضابطة لمختلف نواحي الحياة ، أو يقبل ما وضعه غيره من نظام للحياة. فهو غير مقيد من هذه الجهة بقانون معين ، كغيره من المخلوقات في هذه الدنيا ، بل قد أوتي حرية الفكر وحرية الاختيار في الرأي والعمل .

هاتان الجهتان المختلفتان توجدان في حياة الانسان كل على حدة .

فمن الجهة الاولى هو مسلم قد جبل على الاسلام وفطر على التزامه ، شأن غيره من المخلوقات في هذا الكون ، وقد عرفت ذلك آنفاً .

ومن الجهة الاخرى هو بالخيار في كونه مسلماً أو غير مسلم . وهذه الخيرة هي التي تجعل الانسان على نوعين :

إنسان يعرف خالقه ، ويؤمن به رباً ومالكاً وسيداً لنفسه ، ويتبع قانونه الشرعي في حياته الاختيارية . كما هو تابع لقانونه الطبيعي في حياته الجبرية ، وهذا هو المسلم الكامل الذي قد استكمل إسلامه ، لان حياته أصبحت الآن الاسلام بعينه ؛ وهو قد استسلم ــ رغبة وطواعية ــ للذي كان يطيعه وينقاد لقانونه من غير شعور من قبل ؛ وقد أصبح الآن ــ قصداً وعمداً ــ مطيعاً لربه الذي كان قبل ذلك يطيعه من غير قصد ولا إرادة ؛ وقد أصبح علمه صادقاً لانه عرف الله خالقه وبارئه الذي أولاه قوة العلم والتعلم ؛ واصبح عقله ناضجاً ورأيه سديداً لأنه أعمل فكره ثم

قضى الا يعبد إلا الله الذي أكرمه بموهبة الفهم والرأي في الامور ؛ وأصبح لسانه صادقاً ناطقاً بالحق لانه لايقر الآن الا برب واحد هو الله تعالى الذي انعم عليه بقوة النطق والكلام ... فكأن حياته مابقي فيها الآن الا الصدق ، لأنه منقاد لقانون الله فيما له الخيرة فيه من أمره ، وامتدت بينه وبين سائر المخلوقات في الكون آصرة التعارف والتآنس ، لانه لايعبد الا الله الحكيم العليم ، الذي تعبده وتذعن لامره وتنقاد لقانونه المخلوقات كلها . فهو الآن خليفة الله أي نائب عنه في أرضه . فله كل شيء في الدنيا وهو الله تعالى وحده .

حقيقة الكفر :

وبإزائه إنسان آخر ، ولد مسلماً وعاش مسلماً طول حياته ، من غير أن يشعر باسلامه أو يفطن له ، ولكنه ما أعمل قوته العلمية والعقلية ، ليعرف من خلقه ، وشق سمعه وبصره . فأنكر وجوده ، واستكبر عن عبادته ، وأبى أن ينقاد لقانونه الشرعي فيما أوتي فيه حق التصرف والاختيار من أمور حياته أو أشرك به غيره ، وأبى أن يؤمن بآياته الدالة على وحدانيته ، وهذا هو الكافر . ذلك بأن معنى الكفر هو الستر والتغطية والموارأة . يقال : كفر درعه بثوبه اذا غطاها به ولبسه فوقها ؛ فيقال لمثل هذا الرجل «كافر» لأنه ستر فطرته وغطاها بغطاء من الجهل والسفاهة . وقد علمت أنه ما ولد الا على فطرة الاسلام ، ولا تعمل كل جارحة من جوارح جسده الا طبقاً لفطرة الاسلام ، ولا تسير الدنيا حوله بأسرها الا على سنن الاسلام ؛ ولكنه غطى عقله بحجاب مستور من الجهل والسفاهة ، وتوارت عن بصيرته فطرة الدنيا وفطرة نفسه ، فتراه لايستخدم قواه الفكريةوالعلمية إلا فيما يخالف فطرته، ولا يرى إلا ما يناقضها ، ولا يسعى الا فيما يبطلها .

ولك أن تقدر الآن بنفسك ماارتكس فيه الكافر من الضلال البعيد والغي المبين .

مضار الكفر وعواقبه السيئة :

الكفر جهل ! بل الجهل الحقيقي هو الكفر .. أي جهل أكبر وأدهى من جهل من لايعرف ربه ؟ يشاهد مصنع هذا الكون العظيم دائباً على عمله ، ليل نهار ، ثم لايعرف من خلقه ، وأوحى اليه الداب على عمله ؟ ومن ذا الذي ركب الفحم والهدرجين والاكسجين والآزوت والصوديوم والكلسيوم وغيرها من المواد التي لاحياة لها ولا عقل ، وأخرج منها كائناً عظيما خطيرا كالانسان ؟ أو ليس مما يقضي العجب ، أن يشاهد في كل ناحية من نواحي هذا الكون أشياء كثيرة ، تدل بنفسها على مايحتاج اليه صنعها وتحسين منظرها من براعة نادرة منقطعة المثال ، في الهندسة والرياضيات والكيمياء وغيرها من العلوم ، ثم لا يهديه عقله الى معرفة ذلك العزيز الحكيم العليم ، الذي عني بصنعها وإنشائها ؟ تفكر قليلا : هل يمكن أن ينفتح باب العلم الصحيح في وجه هذا الرجل الذي ضل حتى عن مبدأ العلم ، إنه مهما بالغ في التفكر والتفحص وازداد بحثاً وتنقيباً ، فلن يهتدي الى طريق مستقيم متحقق يوصله الى العلم الصحيح في أي شعبة من شعب الحياة ، لانه يواجه ظلمة الجهل في أول امره ، وكذلك لايواجه في آخره سواها .

الكفر ظلم ! بل أعظم الظلم وأشنؤه هو الكفر .. ذلك أن معنى الظلم ان تضع الشيء في غير محله اللائق به وتستعمله إكراهاً فيما لاتلتئم به فطرته . وقد عرفت ان كل مافي السموات والارض من شيء مذعن لأمر الله ، مفطور على فطرة الاسلام ، حتى

إن الانسان وجسده بكل ما يشتمل عليه من الاعضاء لم يولد الا على هذه الفطرة نفسها . نعم ، لاشك أن الله قد أعطى الانسان جانباً من حق التصرف في هذه الأعضاء . ولكن الذي تقتضيه فطرتها ألاّ يتصرف فيها الا حسب مرضاة خالقها . فالذي يكفر بالله ، إنما يتصرف في أعضاء جسده على وجه لايوافق فطرتها . تراه يعمر قلبه بظلمات الاجلال والحب والرهبة لغير الله ، مع أن الفطرة التي فطر عليها قلبه تطالبه بأن يعمره بنور الاجلال والحب والرهبة لله الصمد وحده . وكذلك يستخدم سائر أعضاء جسده ، وكل ماتحت يده من شيء في هذا الكون ، فيما يناقض مرضاة الله تعالى ، مع أن الطبيعة التي جبلت عليها هذه الاعضاء والاشياء تقتضيه ألاّ يستخدمها الا طبقاً لما جاء به قانون الرب تعالى . فقل لي بالله : من أظلم ممن يقضي حياته ظالماً لكل شيء حتى لنفسه في هذه الدنيا ؟

ليس الكفر بظلم فحسب ، بل هو بغي وعدوان وجحود وكنود أيضاً . أو ترى الانسان مالكاً لشيء مما يجده بين يديه ؟ من ذا الذي خلق عقله ودماغه ؟ أهو نفسه أم الله عز وجل ؟ ومن ذا الذي خلق قلبه ولسانه ، وعينيه وأذنيه ، ورجليه ، ويديه ، وسائر أعضاء جسده ؟ أهو نفسه أم الله تبارك وتعالى ؟ ومن ذا الذي أحسن خلق هذه الأشياء ، وجعلها نافعة له ومكنه من استخدامها والتمتع بها ؟ أهو نفسه أم الله سبحانه وتعالى ؟

لابد أن يكون جوابك عن هذه الاسئلة ان هذه الأشياء كلها لله وحده ، وهو الذي خلقها وأحسن صورها ، وهو مالكها وهو الذي أنعم بها على الانسان ، فاذا كانت هذه هي الحقيقة ، وهي هكذا من غير شك ، فمن يكون أكثر ظلماً وأمعن في الغي والعدوان ممن

يستخدم عقله في التفكير فيما يناقض مرضاة الله تعالى ويعمر قلبه بأفكار تجلب عليــه سخطه ، ويكره لسانه وعينيه ويديه ورجليه على العمل بما ينافي أحكام الله وأوامره ؟ إنك تحكم بالكنود على عبدٍ نشأ على رزق سيده ، ثم لايوفيه ما عليه من حقــه ، وكذلك ترمي بالبغي والخروج على الحكومة موظفاً يستخدم ما بيده من حق التصرف ، في وجوه تخالف مصالح الحكومة ، وتنسب الى الكفران من يتناسى ما لصاحبه عليــه من معروف ... ولكــن ماهي حقيقة كفران الانسان وبغيه وتناسيه لما عليه من معروف لانسان آخر مثله ؟ من أين جاء هذا الانسان بما عنده من الرزق حتى يتفضل به على غيره ؟ أليس الله تعالى وحده هو الذي آتاه قــوة السلطة والامر ؟ وأنى للانسان أن يمن على انسان مثله ويصنع اليه معروفاً ؟ أليس الله تعالى الذي مكنه من كل ذلك ؟ إن أكبر حق على الانسان في هذه الدنيا هو مايجب عليــه نحو والديــه . ولكن من هذا الذي ألقى في قلوب الوالدين حب الاولاد والحنــو عليهم ؟ أم من هذا الذي جعل الأم رحيمة بمن حملته كرهاً ووضعته كرهاً ؟ أم من هذا الذي ألقى في روع الوالد أن ينفق راضيا مطمئنا ما كسبــه بعرق جبينه على مضغــة حقيرة ، ويضحي في سبيل تربيتها وتعليمها بكثير من أوقاته وأمواله ورفاهيته ؟

فقل لي بالله : هل هناك كفر" أفظع من كفر من لا يؤمن بالله ، ويأبى ان يقر له بالألوهية والربوبية ، ويعرض عن طاعته وامتثال أمره ؟وهل يمكن أن تجد بغيا أبشع من بغيه ، وغدراً أشنع من غدره ، وكنوداً أغلظ من كنوده ؟

ولا تظنن أن الانسان يجلب الى الله شيئا من الضرر اذا كفر

به .. كيف والله تعالى ذو ملك عظيم لم يُعرف بعد أقصاه من أدناه على كل ما بذل الانسان من الجهود المتابعة الشاقة واستعمل من الآلات الضخمة النظارة لهذا الغرض ، وله سبحانه وتعالى تسجد الارض والشمس والمريخ وغيرها من السيارات الكبيرة التي لا يأتي عليها الاحصاء فتراها ككرات صغيرة حقيرة في مملكته ، وله عز وجل خزائن السماوات والارض من غير مشارك ولا منازع ، وهو الصمد الجواد الكريم الذي يفتقر اليه الجميع وهو لايفتقر الى أحد . فأنىَ للانسان ، هـذا المخلوق العاجز الحقير الواهن ، أن يجلب الى الله شيئا من الضرر اذا كفر به ؟ إنه إن آمن فلنفسه وإن كفر فعليها .

ومن نتائج الكفر والعصيان المحتومة ان يكتب الخسران والخيبة للانسان فلا يهتدي الى صراط العلم المستقيم أبداً ، لان العلم الذي لا يعرف ربه ، أنىَ له أن يعرف غيره معرفة صحيحة ؟ وكذلك لابد أن يسلك عقله طرقاً معوجة في كل شأن من شؤون حياته ، فان العقل الذي لايهتدي الى معرفة خالقه ، أنىَ له أن يعرف غيره معرفة سليمة ؟ وكذلك لابد أن يهيم على وجهه ويبوء بالخيبة بعد الخيبة في كل أمر من أموره ، وان تفسد عليه أخلاقه ومدنيته وعشرته ومعيشته ، وحكومته وسياسته ، ويعيث في الارض مفسداً ، ليسفك الدماء ، ويعبث بحقوق الناس ، ويذيقهم ألواناً من الظلم والقسوة . فهكذا ينغض على نفسه الحياة بأفكاره الفاسدة وأعماله المنكرة . هذا في الحياة الدنيا ، وأما في الآخرة ، فيقوم في وجهه كلُ شيء ــ صغير أو كبير ــ اعتدى عليه في الدنيا ويشهد عليه ... ففي محكمة الله العادلة ، يرفع القضية

عليه عقله وقلبه ، وعيناه وأذناه ، ويداه ورجلاه ، وسائر أعضاء جسده : « رباه ! إن هذا الظالم خرج عليك في الحياة الدنيا ، وأعرض عن ذكرك ، واستخدمنا كرها وقسراً في معصيتك » . وفي هذه المحكمة العادلة ، التي لا بيع فيها ولا خلة ولا شفاعة ، تستعدي عليه تلك الارض التي مشى وسكن على وجهها عاصياً لله تعالى ، وتلك الاموال التي اكتسبها بطرق محرمة وأنفقها في سبل محرمة ، وتلك الأشياء التي تصرف فيها تصرف الغاصب عدواناً وظلماً ، وتلك الأدوات والقوى التي استخدمها في هذا الظلم والعدوان على كراهية منها . والله سبحانه وتعالى — ومن أحسن من الله حكماً — يغيث جميع هؤلاء ويقطع لها الحق الموفى بإزاء هذا الظلم العاتي ، ويذيقه عذاب الهون والخزي ، جزاء ظلمه وعصيانه .

فوائد الاسلام :

هذه هي مضار الكفر وعواقبه . فتعال ننظر الآن في ما يعود علينا به الاسلام من الفوائد اذا آثرناه ورضينا باتباعه .

قد عرفت من البيان السابق أن هذا الكون فيه من الآيات والعلامات المبثوثة في كل ناحية ما يدل على الوهية الله وربوبيته . فهذا المعمل الكوني العظيم الذي نراه سائراً سيراً مطرداً ، مذعناً لنظام شامل وقانون ثابت ، يشهد بلسان حاله أن خالقه ومدبر أمره حاكم جليل ، ذو سلطة وقوة عظيمة ، لا يخرج عن نفوذه شيء في الارض ولا في السماء . وكذلك عرفت أن الانسان من فطرته أيضاً كسائر الكون أن يطيعه ، فتراه يطيعه ليلا ونهاراً عن غير شعور منه، وذلك أنه من المستحيل على الانسان أن يبقى حياً اذا خالف قانون الطبيعة .

غير أن الله سبحانه وتعالى ، قد وهب للانسان جانباً من الحرية في ارادته وفضَّله على العالمين بمَلَكة العلم ، وقوة الفكر ، والتمييز بين الخير والشر . والانسان وعلمه وعقله وقوة تمييزه خاضع لامتحان في هذه الحرية ، وهو دائماً بعين خالقه ينظر كيف وفيم يستعمل هذه الحرية ؟ والانسان لم يُجبر أن ينهج في هذا الامتحان منهجاً معيناً ، ولو أنه أجبر لبطلت غاية الامتحان . وذلك أمر واضح لا إشكال في فهمه ، لانه اذا جاءك في ورقة الامتحان سؤال أجبرت عليه بجواب معين معلوم ، فأي فائدة تأتي من هذا الامتحان؟ الحق أنه لن تظهر كفاءتك على الوجه الصحيح الا اذا كنت مخيراً تخييراً تاماً في كل جواب تريده ، فان كان جوابك صحيحاً ، نجحت في الامتحان وانفتح في وجهك باب الرقي والكمال في المستقبل . وإن كان جوابك غير صحيح أخفقت في الامتحان وأنسد باب الرقي في وجهك . فهكذا قد متع الله الانسان بالحرية في امتحانه له ، وخيَّره بما يشاء من طريق للسير في حياته .

فرجل لا يعرف فطرة نفسه ولا فطرة هذا الكون ، ويخطىء في معرفة خالقه وماله من الصفات ، ويختار طريق المعصية والبغي ، ولا يُحسن الانتفاع بما أوتي من الحرية في ارادته ، فهو مخفقٌ إخفاقاً مبيناً ، في امتحان علمه وعقله ، وقوة تمييزه بين الخير والشر ، وشعوره بالواجب ، وشاهدٌ على نفسه أنه رجل من أسفل السافلين من كل وجهة ، وينبغي أن يكون مآل أمره كما عرفت آنفاً .

ورجل آخر قد نجح في هذا الامتحان : أعمل فكره ، واستفاد مما أوتي من العلم والعقل استفادة صحيحة ، فعرف خالقه وآمن به ، رغم كونه غير مكره على ذلك . وكذلك ما أخطأ في التمييز بين

الخير والشر ، واختار الخير باستقلال رايه ، مع انه ما كان في وجهه شيء يدرؤه عن الميل الى الشر لو أراده . وتفطن لفطرته ، وعرف ربه ، وآثر طاعته على كونه مخيراً بين الطاعة والمعصية . فأي شيء أنجحه في هذا الامتحان وابلغه مرامه ؟ ذلك انه أحسن استعمال عقله ، والاستفادة من عينيه وأذنيه ودماغه ، وقضى من سويداء قلبه ألا يتبع من الأقوال والاعمال الا الصحيح . وكذلك جاء ببرهان على كونه عارفاً للحق بمعرفته اياه ، وعلى كونه متبعاً له بالاستلام له فعلاً .

أي عجب اذا حظي بالنجاح في الدنيا والآخرة رجل قد تحلى بمثل هذه الصفات العالية ؟ فهو لا يختار في ميدان العلم والعمل الا طريقاً صحيحاً مستقيماً ، لأن الذي عرف ربه وعرف صفاته ، قد عرف مبدأ العلم ومنتهاه . لا يمكن أن يتخبط مثل هذا الرجل في الطرق الملتوية المضلة في حياته ، لأن أول خطوة خطاها ، انما خطاها على علم وبصيرة ، ولن تخفى عليه غايته التي يريد الوصول اليها ، فتراه ينظر في ملكوت السماوات والارض ، ويحاول معرفة أسرار الكون بالطرق الفلسفية ، ولكنه لا يضل في ظلمات الشك والارتياب ، ويستخدم العلوم التجريبية (Science) في معرفة قوانين الطبيعة ، واستخراج ما في الكون من الخزائن الخافية ، وكشف ما أودع الله تعالى من القوى في هذه الدنيا وفي الناس انفسهم ، واختراع أحسن الطرق للانتفاع بما في السماوات والارض ، يقوم بكل ذلك ، ويستقدح فيه قوته الفكرية والعملية ، ولكن تقواه لله تعالى ، وخشيته للقيام بين يديه يوم القيامة ، تحجزانه عند كل خطوة عن سوء استعمال هذه العلوم ، ولن تسوّل له نفسه أبداً ، في أي مرحلة من مراحل سيره ، أنه مالك لهذه الاشياء ، او انه قد

انتصر على الطبيعة ، فيمكنه ويجوز له أن يستخدم هذه العلوم في منفعته الذاتية، وفي تسخير الدنيا وتدويخ بلادها ، وفي قذف الرعب في قلوب الناس باهلاك الحرث والنسل وسفك الدماء . فما كل ذلك الفساد إلا عمل عالم (Scientist) كافر . أما العالم المسلم ، فكلما ازداد انتصاراً على العلوم التجريبية ، ومهارةً فيها ، ومعرفة بأسرار السماوات والارض ، ازداد ايماناً بالله ، وإيقاناً بتوحيده ، وشكراً لنعمته ، واعتقاداً أن ربه ما مكنه من أسباب هذا الكون الا ليكون خادماً لعباده ، ويسعى فيما يعود بالخير عليه وعلى الناس أجمعين ، فان ذلك هو الشكر الحقيقي لله تعالى على ما أولاه من النعم .

وكذلك لا يتخلف المسلم عن الكافر في تحقيقه واجتهاده في التاريخ والاقتصاد والسياسة والقانون وما اليها من العلوم والفنون الاخرى ، ولكن شتان ما بين نظريهما : يدرس المسلم كل علم من هذه العلوم بنظر صائب ، ولغاية صالحة ، وينتهي به تحقيقه الى نتيجة سليمة .. ففي التاريخ يتعظ بتجارب البشر الماضية ، ويستقرىء الأسباب الحقيقية لرقي الأمم وانحطاطها ، ويجتهد في معرفة ما كان نافعاً صحيحاً في حضارتها وثقافاتها ، ويستفيد من أحوال رجالها الصالحين في أعمالهم وأقوالهم ، ويتجنب كل ما أهلك هذه الامم وقطع دابرها من أسباب السوء والضعف .

وفي الاقتصاد يختار لاكتساب الثروة وإنفاقها طرقاً لا يقتصر نفعها على بعض البشر دون بعض ، بل يشمل نفعها جميعَ أهل الارض .

وفي السياسة يكون همه كله منصرفاً الى أن تسود الارض

مبادىء الأمن والسلام والعدل والخير والشرف والمروءة ، فلا يستبد برقاب الناس ولا يستذلهم ، ولا يستعبدهم فرد من الافراد أو جماعة من الجماعات ، والىأن تعتبر السلطة وأدوات الحكم والسيادة وديعة من الله تستعمل في إسعاد عباد الله وفلاحهم أجمعين .

وفي القانون تكون وجهة نظرة أن يقرِّر لجميع البشر حقوقهم وواجباتهم على غاية من العدل والامانة ولا يظلم أحد من أي وجه من الوجوه .

والصدق والأمانة والعفاف وخشية الله واتباع الحق ، كل أولئك مزاج أخلاق المسلم . فهو لا يعيش في الدنيا الا وهو يعلم أن الله تعالى هو رب هذا الكون ، ومالك كل ما فيه من شيء ، وأن كل ما عنده وعند الناس هو من عند الله ، وأنه لا يملك شيئاً حتى نفسه وقواه الجثمانية ، وأن كل شيء عنده أمانة من الله لا يحل له ان يتصرف فيها الا حسب مرضاته تعالى ، وأن الله سيسترد منه هذه الامانة ويحاسبه عليها حساباً دقيقاً في يوم لا ريب فيه .

فارجع الى نفسك وتفكر قليلا في أخلاق مثل هذا الرجل : يطهر قلبه من الظنون الباطلة ، وذهنه من الهم بالسوء ، ويغض من طرفه عن النظرة الخاطئة ، ويصم سمعه عن الفاحشة ، ويحفظ لسانه عن النطق بشيء يخالف الحق ، ويؤثر أن يموت جوعاً على أن يملأ بطنه برزق حرام ، ولا يبسط يده بالظلم والاعتداء على حق غيره ، ولا يطأ بقدمه طريق السيئة ، ولا يطأطىء رأسه أمام الباطل ولو صلب وقطع جسده تقطيعاً ، ولا يحقق أملاًمن آماله ولا حاجة من حاجاته عن طريق الشر والظلم والعدوان ، وأعز شيء عنده هو الحق والصدق والامانة ، لا يضن في سبيلها بشيء من نفسه أو ماله ، وابغض شيء

في نظره هو الظلم والكذب والخيانة ، لا يرضى بانتصارها واختيار سبيلها خوفاً على نفسه من مضرة أو رجاء في منفعة .

فمثل هذا الرجل هو الذي يفوز بفلاح الدنيا أيضا .

نعم ! ليس في الدنيا رجل أكثر منه عزاً وشرفاً وفضيلةورفعة ، لأن رأسه لا يتطأطأ ، ويده لا تمتد أمام أحد غير الله ، فأنىّ للذل والهوان أن تدركه أسبابهما .

وليس فيالدنيا رجل أكثر منه قوة وإقداما وجراة، لانه لايخاف غير الله ولا يعلق رجاءه بسواه ، فأي قوة تقدر أن تنكبه صراط الحق، وأي ثروة تقدر ان تشتري متاع ايمانه ؟

وليس في الدنيا رجل اغنى منه وأكثر ثراء ، لانه ليس بكلب الدنيا ، ولا بحريص على حطامها الفاني ، ولا بمتبع لشهواته النفسية، وهو يقتنع بما يكسبه بسعيه المشروع ، ولا يمد عينــه الى ثروة محرّمة ، ويرفضها بكل احتقار واستخفاف ولو حشدت اليه منها القناطير المقنطرة ... هذه هي ثروة القناعة والطمأنينة ، ولا يمكن ان تكون في الدنيا ثروة أغلى منها قيمة .

وليس في الدنيا رجل احب منه الى قلوب الناس ، واعز في نظرهم ، لانه يؤدي الى كل منهم حقوقه كاملة ، ولا يبخس منهـا شيئاً ، ويحسن اليهم ، ولا يسيء الى أحد منهــم ، ويسعى في سعادتهم ، ولا يبتغي منهم جزاء ولا شكورا ... كل ذلك مما يجذب اليه قلوب الناس ، ويضطر كلاًمنهم الى حبه واحترامه وإجلاله .

وليس في الدنيا رجل يحوز في نفسه ثقة الناس واعتمادهم اكثر منه ، لانه لا يخون اماناتهم ، ويعاملهم دائما بالصدق والحسنى، ويوفي لهم كل ما يعاهدهم عليه ، ولا يبتغي عن الصدق والامانة بدلاً

في أي شأن من شؤونه ، موقناً من نفسه ان الله ينظر اليه ، حتى في احواله التي لا يراه فيها احد في هذه الدنيا . فلا تسل عن مبلغ حب الناس له ، واعتمادهم عليه ، ورجوعهم اليه في كل امر من امورهم .

اذا عرفت كل هـذا عن سيرة المسلم وأخلاقـه في الدنيـا ، استيقنت نفسك انه من المستحيل ان يعيش المسلم في الدنيا ذليلا مهاناً مغلوباً على أمره ، بل لا بد ان يكون في حياته ، عزيز الجانب رفيع الرأس ، لأن الصفات التي يحليه بها الاسلام لا يمكن ان تغلبها قوة من قوى الدنيا أبداً .

هذا ما للعبد المسلم في حياته الدنيا ، اما في الآخرة ، فسيتغمده الله برضوانه ، ويدخله جنات تجري من تحتها الانهار ، وله فيها كل ماتشتهيه نفسه ، جزاء على أدائه حق الامانة ، ونجاحه في امتحانه في الدنيا . وذلك هو الفوز المبين الابدي ، يتمتع به العبد المسلم في الدنيا والآخرة .

هذا هو الاسلام . دين الانسان المفطور عليه . وهو لا يختص بأمة دون امة ، ولا بقطر دون قطر ، ولا بزمن دون زمن . كان يدين به كل من عرف الله ، واتبع قانونه ، وسلك صراطه المستقيم ، في أي زمن أو امة أو قطر ، سواء أسمّى دينه بالاسلام أو بغيره من الألفاظ بلسان قومـه .

الفَصْلُ الثّاني

الايمان والطاعة

حاجة الانسان الى العلم واليقين للطاعة ــ معنى الايمان ــ وسيلة الحصول على العلم واليقين ــ الايمان بالغيب .

حاجة الانسان الى العلم واليقين للطاعة :

قد عرفت ان الاسلام ، هو طاعة الله تعالى ، والانقياد لأحكامه وأوامره . ونريد أن نبين لك الآن ، أن الانسان لا يستطيع ان يطيع الله ، ويتبع قانونه ، ويسلك سبيله الا اذا علم عدة أمور ، وبلغ علمه بها مبلغ اليقين .

إن أول ما يجب على الانسان بهذا الصدد أن يكون موقناً من قلبه بوجود الله تعالى ، فانه اذا لم يكن موقناً بوجوده ، فكيف يطيعه ويتبع قانونه ؟

وكذلك يجب عليه ان يعرف صفات الله تعالى ، فانه اذا لم يعرف ان الله واحد لا شريك له في الوهيته ، فكيف يرتدع عن طأطأة رأسه ومد يده أمام غير الله ؟ وكذلك اذا لم يكن موقناً بأن الله سميع عليم بصير

بكل شيء ، فكيف يمسك نفسه عن معصيته والخروج على أمره ؟ فيتضح من كل ذلك ، أن الانسان لايمكنه أن يتحلى بالصفات اللازمة التي يجب عليه أن يتحلى بها ، في أفكاره ، وأعماله ، واخلاقه ، لسلوك صراط الله المستقيم ، ما دام لا يعرف صفات الله تعالى ، ولا يحيط بها علماً صحيحاً كاملاً . ولا يكفي أن يكون هذا العلم علماً فحسب ، بل ينبغي ان يكون متمكناً من أعماق قلبه ، ليأمن قلبه من الظنون الخاطئة ، وحياته من العمل بما يخالف علمه .

ثم يجب على الانسان ، أن يعرف ما هو الطريق الصحيح لقضاء الحياة في هذه الدنيا ، وفقا لمرضاة الله تعالى ، وأي شيء يحبه الله تعالى كي يختاره ، وأي شيء يبغضه كي يبتعد عنه . ولا بد ــ لهذا الغرض ــ أن يكون الانسان على معرفة بقانون الله ، وأن يكون موقناً بكون هذا القانون من عند الله تعالى ، وبانه لن ينال وجه ربه ، حتى يكون متبعاً هذا القانون اتباعا كاملاً في حياته ؛ فانه اذا لم يعرف هذا القانون أصلا فكيف يتبعه في حياته ؟ وانه اذا لم يكن علمه بهذا القانون قد بلغ درجة اليقين ، أو اذا كان يحسب في نفسه ، انه من الممكن أن يكون في الدنيا قانون آخر مثل هذا القانون في صحته وسداده ، فكيف يواظب على اتباعه مواظبة صحيحة ؟

ثم على الانسان أن يكون على علم من مآل أمره اذا اختار معصية الله تعالى على طاعته ، ولم يسلك صراطه المستقيم ، أو اذا واظب على طاعته واتبع قانونه في حياته . ولهذا الغرض لابد أن يكون موقناً بالحياة الآخرة ، وبقيامه بين يدي الرب تعالى يوم القيامة ، ومجازاته له على أعماله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

والذي لا علم له بالحياة الآخرة ، سواء في نظره الطاعة والمعصية لافرق بينهما ، ولا يكاد يميز بين نتائجها المختلفة ، ويظن أن الذي يطيع الله والذي يعصيه سواء مصيرهما بعد الممات . فكيف يرجى من مثل هذا الرجل أن يكف نفسه عن اقتراف الذنوب مادام لايخاف مضرتها على نفسه في حياته الدنيا ، أو يصبر نفسه على طاعة الله وشدائدها ومقتضياتها ؟ لايمكن أن يكون الانسان متبعاً لقانون الله بمثل هذه العقيدة . وكذلك لايمكن أن يواظب على طاعة الله واتباع قانونه رجل على علمٍ بالحياة الآخرة وقيامه بين يدي الله تعالى يوم القيامة ، ولكن علمه هذا لم يبلغ درجة اليقين ، فان الانسان لا يكاد يثبت على شيء بالشك والتردد ، وانما يكمنه أن يواظب على أمر ، ويثبت نفسه على طاعته اذا كان على يقين تام من نفعه لنفسه ، وكذلك لايستطيع أن يبعد نفسه عن أمر ، إلا أن يكون موقناً بمضرته لنفسه .

يظهر هذا كله ؛ انك اذا أردت أن تسلك طريقاً من الطرق ، فلا بد لك أن تكون على معرفة من نتيجته وغايته التي ينتهي بك اليها . وينبغي أن تكون معرفتك هذه بالغةً درجة اليقين والوثوق .

معنى الايمان :

فالذي عبرنا عنه آنفا بالعلم والمعرفة واليقين هو « الايمان » وذلك هو معنى كلمة الايمان بعينه . فكل من عرف توحيد الله ، وصفاته الحقيقية ، وقانونه ، ومجازاته لعباده على أعمالهم يوم القيامة ، ثم كان موقناً بكل ذلك من قرارة نفسه ، هو « المؤمن » . ومن نتائج الايمان أن يكون الانسان مسلماً ، اي مطيعاً لله ومتبعاً لقانونه .

ولعلك قد عرفت من هذا بنفسك أن الانسان لايمكن أن يكون مسلماً الا اذا كان مؤمنا . فصلة الايمان بالاسلام كصلة البذرة بالشجرة ، فانه لا تنبت الشجرة الا بالبذرة ، وإن كان من الممكن أن يلقي البذر في الارض فلا تنبت الشجرة ، أو تنبت ولكن يشيء من النقص ، إما لكون الارض مجدبة ، أو لشيء من الفساد في الجو . فكذلك لايمكن أن يكون الانسان مسلما اذا لم يكن في قلبه ، وإن كان من الممكن أن يكون الايمان في قلبه ثم لا يكون إسلامه كاملاً ، إما لضعف في عزمه ، أو لنقص في تعليمه وتربيته ، أو تأثير بيئته .

فاذا عرفت هذا ، فاعلم أن الانسان على أربع درجات باعتبار هذين الاصلين : الايمان والاسلام :

١ ـ الذين يؤمنون بالله ايمانا يجعلهم مطيعين له ، متبعين لاحكامه اتباعا كاملاً ، يحذرون ما قد نهى عنه ، كما يحذر الانسان الامساك بجمرة متقدة من النار في يده ، ويسارعون الى العمل بما فيه مرضاه ، كما يسارع الانسان الى كسب الاموال . فهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

٢ ـ الذين يؤمنون بالله ، ولكن لايجعلهم ايمانهم مطيعين له ، متبعين لاحكامه اتباعاً كاملا . فهؤلاء وان كان ايمانهم لم يبلغ درجة الكمال ، ولكنهم مسلمون على كل حال ، يعاقبون بقدر معصيتهم ، كأنهم بمنزلة المجرمين ، وليسوا بمنزلة البغاة المتمردين، لانهم يعترفون للملك بملكه ويخضعون لقانونه .

٣ ـ الذين لا يؤمنون بالله ، ولكنك تراهم ظاهراً يأتون بأعمال تشابه أعمال المسلمين ؛ فهم البغاة في حقيقة الامر ، وأما أعمالهم

التي تراها صالحة في الظاهر، فليست بطاعةالله، ولا اتباعٍ لقانونه، فلا عبرة بهـا . ومثلهم كمثل رجل لا يعترف للملك بملكه ، ولا يخضع لقانونه ؛ فاذا صدرت عنه بعض أعمال لاتخالف قانون الملك ، لايحكم عليه بكونه وفياً للملك ومطيعاً لقانونه ، بل هو عاصٍ لامره خارج على قانونـه .

٤ ــ الذين لايؤمنون بالله ، ويأتون أيضاً بأعمال سيئة مخالفة لاحكامـه وقانونه ، فهم شر الناس ، بغاة ومفسدون بآن .

فالظاهر من هذه القسمة ان الايمان هو الذي ينحصر فيـه نجاح الانسان ، وسعادتـه في الدنيا والآخرة ، ولا يتولد الاسلام ــ كاملا أو ناقصا ــ الا من بذر الايمان . فحيث لا يكون الايمان يكون الكفر ، والكفر هو ضد الاسلام ، أي الخروج على أمر الله تعالى باختلاف درجاته .

وسيلة الحصول على العلم واليقين :

قد عرفت انه لابد من الايمان للطاعة ؛ ولعلك تسائلني الآن : فما هي الوسيلة الى الحصول على العلم الصحيح ، واليقين المحكم ، بصفات الله تعالى وقانونه المَرضِّي والحياة الآخرة ؟ .

قد بينا لك في ما سلف ، أن آثار رحمة الله ومعالم بديـع صنعـه منبثة في كل ناحية من نواحي هذا الكون ، وهي تشهد بلسان حالها ، أنـه لم يَعْنَ بايجاد هذا الكون الا إله واحد ؛ وهو الذي يسيره ويدبر شؤونه ؛ وكذلك تتجلى لكل من ينظر في هذه الآثار ، صفات الله تعالى كلها ، بأتم مظهرها ؛ فأي صفة من صفات الحكمة ، والعلم ، والابداع ، والعفو ، والكرم ، والرحمة ، والربوبية ،

والقهر ، والغلبة ، وما اليها من صفاته تعالى ، لا تلوح من أعماله وبدائـع صنعه في هذا الكون ؟ ولكن الانسان قـد أخطأ عقلـه وكفاءته عامة ، في مشاهدة هذه الآثار والتأمل في حقيقتها . وهذه الآثار ماثلة أمام عين الانسان ، ولكن على رغم شهادتها بتوحيد الله تبارك وتعالى في جميع صفاته ، فقد قال بعض الناس : إن الالـه إلهان ! وقال بعضهم : إن لهذا الكون ثلاثة آلهة ! واتخـذ بعضهم لنفسه آلهـة لاتحصى ! ووزع بعضهم الالوهية بين آلهة متعددة ، فقال : للمطر إلها وللنار إلها . . وجعل لكل قوة من قوى هذا الكون إلها خاصاً بها ، ثم جعل على رأس الجميع إلهاً أكبر ، يلجؤون اليه ويقتـدون بـأمره ! وهكـذا خبط العقـل البشري في إدراك ذات الله تعالى ومعرفـة صفاته خبط عشواء ليس هذا بمقـام تفصيلـه .

وكذلك جاء مختلف الناس بظنون خاطئة ، وأفكار كاذبة عن الحياة الآخرة ، فمنهم من قال : إن هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، ومنهم من قال : إن الانسان تتكرر حياته وموته مرة بعد مرة في هذه الدنيا ، ولا ينال جزاء أعماله الا فيها . .

أما القانون الذي يجب على الانسان ان يواظب عليه ، لقضاء حياتـه حسب مرضاة الله تعالى ، فأنى للانسان ان يضعه بنفسه ، أو يدركه بعقله اذا كان لم يستطع ان يعرف ذات الله تعالى وصفاته بنفسه ؟ .

ومهما كـان عقل الانسان ناضجاً ، وكـان حائزاً عـلى أعلى درجة في الكفاءة العلمية ، فانه لا يستطيع ان يرى في هذه الامور رايا أو مايشبه الرأي ، الا بعد تجارب سنين عديدة ، وتأمل طويل ؛

بل انه لايمكن ان يكون واثقا من نفسه حتى بعد كل ذلك ، ولا أن يدعي أنه قد عرف الحق وأحاط به علماً تاما . ولا شك ان الطريق المعروف لاختبار عقل الانسان وعلمه ، أن يُترك وشأنه بدون أي هداية من فوقه ، ليقرع جده ، وينشد الحق والصدق لنفسه بنفسه ، فيكون النجاح حظ مَن ساعده سعيه وكفاءته ، والخسران نصيب من فاته سعيه وكفاءته . ولكن الله عز وجل أراد بعباده الرحمة ، وما ابتلاهم بمثل هذا الاختبار العسير ، فبعث اليهم من أنفسهم رجالا ، وهب لهم علما صحيحا بصفاته ، وعلمهم الطريق الذي يمكن أن يقضي به الانسان حياته في الدنيا وفقاً لمرضاة ربه ؛ وكذلك أعطاهم العلم الصحيح بالحياة الآخرة وأمرهم ان يبلغوا علمه الناس جميعاً . فهؤلاء هم رسل الله وانبياؤه ؛ والطريق الذي نالوا به هذا العلم من الله تعالى هو الوحي ، والكتاب الذي فيه هذا العلم يقال له : كتاب الله أو كلامه . فلا اختبار الآن لعقل الانسان وكفاءته ، الا من حيث ايمانه بالرسول او كفرانه بعد النظر الى حياته الطيبة وهدايته السامية ؛ فمن كان مستعدا لمعرفة الحق واتباعه ، صدق بالحسنى ، وآمن بمن جاء بها ، ونجح في اختباره . وأما من كذب بالحسنى واستغنى عمن جاء بها ، فقد أضاع من نفسه أهلية معرفة الحق والصدق وقبولهما ، وذلك ما جعله يخيب في اختباره . وصده عن تلقي العلم الصحيح بالله وقانونه والحياة الآخرة .

الايمان بالغيب :

إنك اذا كنت لاتعرف شيئا ، تبحث عن رجل يعرفه ، ثم تعمل بقوله وتنزل على رايه . فاذا مرضت مثلا فانك لاتعالج نفسك بنفسك ، بل تراجع الطبيب ، فان كان هذا الطبيب محنكاً في فنه ، حائزا فيه شهادة عالية ، ورأيته قد شفي على يده كثير من الناس ،

آمنت أن لديه الكفاءة التي يحتاج اليها علاجك . فبناءً على هذا الايمــان ، لا تتناول الا الدواء الذي يصفه لــك هــذا الطبيب ، وتجتنب كل ما ينهاك عنه . وكذلك تؤمن بالمحامي وتطيعه في أمر القانون ، وتؤمن بالاستاذ في أمر التعليم وتصدق كل مــا يبيّنه لك . وكذلك عندما تريد التوجه الى مكان لا تعرف الطريق الموصل اليــه ، تؤمن بمن يعرفه ، وتصدق بقوله ، وتسلك الطريق الذي يبينه لك . وهكذا شأنك في كل أمر من امور الدنيا . . فذلك هو الايمان بالغيب .

فالايمان بالغيب معناه أن ترجع في معرفة ما لا تعرفه الى من يعرفه ، ثم تصدقه في قوله ، إنك لاتعرف ذات الله تعالى ولاصفاته ، ولا تعلم أن ملائكته يسيِّرو شؤون الكون بأمره ، ويحيطون بالناس من كل جهة . ولا تعرف ماهو الطريق الصحيح لقضاء الحياة وفقاً لمرضاته تعالى ، ولا علم لك بالحياة الآخرة وما يحصل فيها للعباد ، فجميع هذه الامور وأمثالها أنما تنال علمها عن رجل تطمئن الــى صدقه وعفافه وتقواه في جميع شؤون حياته ، وتختبره في أعماله النزيهة وأقواله الحكيمة ، فتسلم بأنه لا يقول الا الحق ، وان جميع أقواله جديرة بأن تقبلها وتؤمن بها . فهذا هو ايمانك بالغيب ، ولا بد لك منه إن أردت طاعة الله تعالى ، والعمل بما يحبه ويرضاه ، فانه لايمكن ان تتلقى العلم الصحيح بهذه الامور الا بواسطة الرسول ولا يمكن ان تهتدي الى صراط الاسلام المستقيم وتسلكه بدون هذا العلم الصحيح .

الفصل الثالث

النبوة

حقيقة النبوة ـ معرفة النبي ـ طاعة النبي ـ الحاجة الى الايمان بالنبي ـ موجز تاريخ النبوة ـ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ـ ثبوت النبوة المحمدية ـ ختم النبوة ـ الدلائل على ختم النبوة .

إنك قد عرفت من الفصل السابق ثلاثة أمور :

أولا : أن الانسان محتاج الى العلم الصحيح بذات الله تعالى ، وصفاته وطرقه المرضية ، وحساب الآخرة ومجازاتها لطاعة الله وامتثال أوامره وأحكامه ، وانه ينبغي أن يكون علمه هذا قد بلغ من قوته وإتقانه درجة اليقين والوثوق .

ثانياً : أن الله تعالى ، ما كلف عباده أن ينالوا هذا العلم بكدهم ، بل قد اصطفى منهم رجالا ـ وهم أنبياؤه ـ وأعطاهم هذا العلم وأمرهم أن يبلّغوه سائر عباده في الارض .

ثالثاً : انه ليس على الناس الآن الا أن يعرفوا أنبياء الله الصادقين، وأنهم اذا علموا من رجل انه نبي الله اليهم ، فعليهم أن يؤمنوا به ،

ويسمعوا له ، ويطيعوه في قوله ، ويذعنوا لامره ، ويحتذوا على مثاله في كل شأن من شؤون حياتهم .

ونريد ان نبين لك الآن ما هي حقيقة النبوة وما هو الطريق الى معرفة الانبياء .

حقيقة النبوة :

إن الله تعالى قد خلق في هذا الكون كل شيء يحتاج اليه الانسان . فهو مزوّد منذ ولادته بالعينين للنظر ، والاذنين للسماع ، والانف للتنفس والشم ، والقوة اللامسة في الجلد للحس ، والقدمين للمشي ، واليدين للعمل ، والذهن للفكر ، وما اليها من الاعضاء المتعددة الاخرى التي يشتمل عليها جسده الصغير ، زوده الله تعالى بكل ذلك نظرا الى مختلف حاجاته . ثم عندما يدخل في هذه الدنيا ويبدأ فيها حياته ، يجد أمامه من أسباب العيش ومرافق الحياة مالا يدركه الاحصاء ؛ فهناك الهواء والماء والنور والحرارة ، واللبن في ثدي الأم ، والحب في قلوب الأبوين والأقارب وغيرهم . ثم على قدر نموه وترعرعه ، تزداد أسباب قضاء حاجاته في الدنيا ، كأنه لم يخلق كل مافي السماوات والارض من القوى العديدة الا لانمائه والقيام بخدمته وحده .

ثم تقدم الى الامام خطوة أخرى ، تجد أن الله تعالى وهب للانسان كل ما يحتاج اليه من المواهب والكفاءات والقوى ، للعمل في هذه الدنيا . فكل فرد من أفراد البشر يحوز في نفسه قليلا أو كثيرا من القوة الجسدية والعقل ، وقوة الفهم والفطنة والنطق . ولله في خلقه شؤون لا يحمد عليها الا هو ، فانه ما سوّى جميع أفراد البشر في قسمة هذه المواهب والكفاءات بينهم ، ولو انه

سوّاهم جميعا في قسمتها بينهم ، لاستغنى كل منهم عن أخيه ولم يحفل به أصلا . ولاجل ذلك فقد قدر الله تعالى مايحتاج اليه النوع البشري ـ من حيث مجموعة ـ من المواهب والكفاءات ، ثم وزعها بين مختلف أفراده ، حيث جعل نصيب هذا من احدى الكفاءات ما لم يجعل نصيب ذاك ، وجعل نصيب ذاك من كفاءة أخرى ما لم يجعل نصيب هذا . ومن ثم ترى ان بعض الناس يفوق غيره في القوة الجسدية ، وبعضهم عنده من المهارة في فن من الفنون او حرفة من الحرف ، ماليس عند غيره ، وبعضهم فيه من الذكاء والعقل وقوة الفهم ماليس في غيره ، وبعضهم يميل الى العسكرية ميلا فطرياً ، وبعضهم يولد على كفاءة خاصة في الحكم والسيادة ، وبعضهم يولد على قوة غير عادية في الخطابة ، وبعضهم فيه من الملكة الانشائية ماليس في غيره ، وبعضهم يكون ثاقب الفكر متَّقد الذهن في فن الرياضيات فيحل بكل سهولة كثيرا من مسائله المعضلة التي يعجز عن حلها غيره ، وبعضهم يخترع عجائب الاشياء وغرائبها ويدهش العالم بمخترعاته ، وبعضهم يكون ذهنه حاذقاً نافذا في القانون ، وسرعان ما ينفذ نظره الى كثير من نكاته التي لاينفذ اليها نظر غيره الى عدة أعوام . فكل ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده . ولا يقدر رجل أن يوجد في نفسه هذه الكفاءات بنفسه ، ولا يمكن أن تتأتى هي في نفسه بالتعليم والتربية ، وانما هي مواهب فطرية يختص بها الله تعالى بحكمته من يشاء من عباده .

واذا نظرت في وجود مختلف الكفاءات والمواهب في مختلف أفراد البشر ، علمت أن لله تعالى حكمة بالغة في هذا الباب ، حيث

قد جعل فيهم كل كفاءة وموهبة على قدر حاجة النوع البشري اليها . فجعل رجال الجند ، وكذلك المتعاطين للزراعــة والنجارة والحدادة والحياكة ، وما اليها من المهن الاخرى بحيث لايكاد يحصى عددهم . أما أصحاب القوى العلمية والفكرية ، ومواهب السياسة والقيادة ، فعددهم أقل من عدد أولئك ، واقل عددا من الجميع أولئك الذين لهم كعب بالغ ومهارة فذة في فن خاص من الفنون ، ذلك لان أعمالهم تغني البشر الى قرون وأجيال ، عن أمثالهم مــن الحذَّاق في هــذا الفن .

ولكن هل يكفي لحاجة النوع البشري وسعادة حياته في الدنيا ، أن يوجــد في الناس الماهرون في فنون الهندســة والرياضيات والكيمياء والقانون والسياسة والاقتصاد وغيرها من الفنون الاخرى؟ كلا ! بل الذي حاجته اليه أشد وآكد من حاجته الى هذه الفنون كلها ، هو أن يكون في الناس من يأخذ بيده ويرشده الى صراط الله المستقيم . نعم إن كل عالم من علماء هذه الفنون ، يرشده الى أن يعرف ماله في هذه الدنيا ، وما هو الطريق لاستخدامه ، ولكن حاجته أشد وآكد الى من يبين لــه « من هو مالكه ، ومن ذا الذي وهب له مافي السماوات والارض ، وما هي مرضاة هذا الواهب ، حتى ينال الفوز الابدي اليقيني بقضاء حياته وفقَها . » ومما يأباه العقل الانساني ، أن يكون الله تعالى ، الذي خلق للانسان كل صغير وكبير يمكن أن تمسه الحاجة اليه في هذه الدنيا ، قد غفل عن حاجة الانسان هذه ولم يكترث لها أصلا ، وهي أكبر حاجــات الانسان وأقدمها كما عرفت . نعم ! لا يمكن ذلك ابدا ، بل الله قد خلق في الناس رجالا كانوا على استعداد عظيم لمعرفته بأنفسهم ، فأعطاهم من عنده علم الدين والاخلاق والشريعة ، وكلّفهم بتعليمها

سائرَ العباد في هذه الدنيا . فهؤلاء الرجال هم الذين نسميهم رسل الله وأنبياءه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

معرفة النبي :

كما أن البارعين في جميع العلوم والفنون ، يولدون على قريحة خاصة ، وطبيعة غير عادية ، يمتازون بها عن غيرهم ، كذلك يولد الأنبياء على طبيعة خاصة يمتازون بها عمن سواهم .

يتبين لك الشاعر المطبوع بمجرد سماعك لكلامه ، وتعرف أنه قد ولد مزوداً بملكة خاصة في الشعر ، لان غيره لا يأتي بمثل شعره ولو بذل أتم جهده . وكذلك تعرف الخطيب المطبوع ، والكاتب المطبوع ، والمخترع المطبوع ، والقائد المطبوع ، بأعمالهم ، فإن كل واحد منهم يأتي في أعماله بقريحة فذة ، لاعهد للناس بها في غيره . وكذلك تلقَى في روع النبي وتحول في ذهنه أفكار مبتكرة لاتخطر ببال أحد من البشر ، وهو يعرض على الناس ويشرح لهم من المسائل والموضوعات مالا يستطيع أن يبينه لهم غيره ، وينفذ نظره إلى أمور دقيقة لا يهتدي إليها نظر سائر الناس ولا يفهمونها ، رغم بذلهم كل جهودهم أعواماً وسنين . يقبل العقل السليم كل ما يقول وتشهد القلوب بصدق بيانه ، وكذلك تصدقه تجاربُ الدنيا ومشاهد الكون في كل قول من أقواله ، ولكن اذا أراد امرؤ أن يأتي بمثل شيء من أقواله فلن يستطيعه أبداً ، ويكون النبي طاهر الفطرة، تقي السجية ، لا يسلك في كل شأن من شؤونه الا طريق الصدق والعفاف والشرف ، ولا يأتي في أقواله أو أعماله بشيء لا يلائم الحق والصواب. يهدي الى الرشد، ويسابق غيره الى العمل بما يأمر به

الناس ، ولا يكاد يوجد مثال واحد في حياته على مناقضة عمله لقوله . وهو يتحمل المضرة في سبيل مصالح غيره، ولا يضرهم في سبيل مصلحة نفسه . وحياته كلها صدق وأمانة وشرف وصفاء سريرة ، وفكرة عالية ، ومروءة سامية ، لا أثر فيها لعيب أو نقيصة . ويشهد كل ذلك شهادة ناطقة بأن هـذا نبي الله الصادق أرسل الى الناس لهدايتهم .

طاعة النبي :

اذا عرفت عن رجل انه نبي صادق من عند الله تعالى ، فعليك أن تطيعه في كل ما يأمر به أو ينهى عنه ، فانه مما يأباه العقل البشري العام ، أن تسلم لانسان بنبوته ثم لا تطيعه ، فانه لا معنى لتسليمك بنبوته الا انك قد آمنت انه لاينطق عن الهوى ، ولا يقول شيئا الا من عند الله ، ولا يأتي بعمل الا حسب مرضاته تعالى ؛ فكل ماتقول او تعمل الان خلافا لهذا النبي ، فانما تقوله وتعمله خلافا لله تعالى نفسه ، وكل مايكون خلافاً لله تعالى ، لايمكن أن يكون حقاً أبدا . فالذي يستلزمه ايمانك بالنبي ، أن تطيعه طاعة تامة بدون أي اعتراض أو توقف ، في كل ما يأمرك به وينهاك عنه ، سواء أفهمت ما في أمره ونهيه من الحكمة والفائدة أم لم تفهم ؛ فان مجرد كونه من عند الله ، هو أكبر شهادة بصدقه وتضمّنه لجميع الحكم والفوائد . واذا كنت لاتفهم حكمة من حِكمه ، أو فائدة من فوائده ، فما ذلك لعيب في صميمه ، وانما ذلك لشيء من الفساد أو القصور في قوة فهمك أنت . ومن الظاهر أن رجلا غير ماهر في فن من الفنون لايكاد يفهم دقائقه أو يحيط به علماً ، يكون بالغ السفه اذا رد على الماهر قولا من أقواله ، لمجرد أنه لايكاد يفهمه أو يفطن لما فيه من الحكمة والفائدة . وكل أمر من أمور الدنيا

مفتقر الى رجل حاذق فيه ، محيط بدقائقه ، وعندما يجد الناس مثل ذلك الرجل الحاذق ، يرجعون اليه ، ويصدقونه ، ويعتمدون عليــه ، ولا يعترضون على ما يقول ، ولا يتدخلون في أعماله ؛ لانه لا يمكن ان يكون جميع الناس ماهرين فيٰ جميع العلوم والفنون قادرين على فهم أمور الدنيا كلها . فالذي يجب ان تقصر عليه قوة عقلك وفهمك هو البحث عن رجل ماهر ؛ فاذا وجدتــه وآمنت بمهارته فعليك أن تثق به كل الثقة ولا تتعرض لشيء من أعماله بالاعتراض والاصرار على رأيك ، ومن السفاهة ان تقول له : لا أصدقك ولا أومن بمهارتك الا اذا جعلتني على علم بما في عملك هذا ، وهذا من الحكمة والفائدة . الا تكل أمرك الى المحامي عندما تعرض لك قضية في المحكمة ؟ وقل لي ألا يطردك هذا المحامي من مكتبه اذا تعرضت لاعماله بمثل هذا التدخل ؟ وكذلك قل لي الا يكف الطبيب عن علاجك اذا طلبت منه الدليل على صحة كل وصفة من وصفاته ؟ فهكذا أمر الدين بعينه . انك محتاج الى علم الله والى ان تعرف الطريق الصحيح لقضاء حياتك وفقا لمرضاته ، ولكن لاسبيل لك الى الحصول على هذا العلم ومعرفة هذا الطريق بنفسك ، فمن واجبك اذن ، أن تبحث عن نبي الله الصادق ، وتعمل في البحث عنه ، كل ما أعطاك الله من قوة العقل والبصيرة والفهم والفطنة فانك اذا اتخذت نبيك رجلا لم يبعثه الله تعالى ، أضلك عن سبيل الحق ، وسلك بك طرقــاً معوجــة ، ولكــن اذا ايقنت ــ بعد البحث والتنقيب والاختبار ــ ان رجلا ّما ، نبي مرسل من عند الله تعالى ، فعليك أن تعتمد عليه كل الاعتماد ، وتطيعه طاعة كاملة في كل شيء يأمرك به أو ينهاك عنــه .

الحاجة الى الايمان بالانبياء :

اذا عرفت أن طريق الاسلام المستقيم هو الذي يرشد اليه النبي بأمر ربه، علمت أن البشر جميعا محتاجون الى الايمان بالنبي واتّباعه وامتثال أمره ؛ وأن الذي يخالف النبي ، ويعرض عن طاعته ، ويبتدع طريقاً بنفسه ، هو الضال من غير شك .

والناس يأتون في هذا الباب بعجائب ، فمنهم الذين يعترفون بصدق النبي ولكن لا يؤمنون به ولا يطيعونه ، فما أولئك بالكافرين فحسب ، بل هم سفهاء أيضا ، فانه لا معنى لتصديق النبي والاعتراف بكونه من عند الله تعالى ثم الاعراض عن طاعته ، الا إيثار الباطل على الحق، واشتراء الضلالة بالهدى عمداً . ومن الواضح الا حماقة أفظع من هذه الحماقة .

ومنهم الذين يقولون لسنا بحاجة الى اتباع الرسول ، لأن لنا عقلا يمكن أن يرشدنا الى الصراط المستقيم ، فهذا أيضا خطأ عظيم ، وضلال بعيد . قد تعلمت علم الرياضيات وتعرف أن الخط المستقيم الواصل بين نقطتين لا يكون الا واحداً ، وأن كل خط دونه إما غير مستقيم ، أو غير واصل بين النقطتين . فهكذا لا يمكن أن يكون طريق الحق ـ المصطلح عليه في الاسلام بالصراط المستقيم ـ الذي يصل بين العبد وربه ، إلا واحداً ، بحكم قاعدة الرياضيات هذه . فكل طريق غير هذا الطريق ، إما غير مستقيم ، أو غير موصل العبد الى ربه .

وتقدم خطوة اخرى ، قد عرفت أن الطريق الموصل الى الله واحد ، وهو الذي هدى اليه نبيه ، فكل من رغب عن هذا الطريق ، وأجهد نفسه في البحث عن طريق غيره ، لا يعدو أمره أن يكون على إحدى صورتين :

إما ألا يجد طريقاً موصلا الى الله أصلا ، أو يجد طريقاً طويلا منحنياً . ففي الصورة الاولى لا شك في هلاكه . وأما الصورة الاخرى فلا شك أيضاً في كونها حماقة وضلالة على الأقل . ألا ترى ان حيواناً اعجم اذا أراد الوصول الى مكان خاص ، اختار لسيره اليه خطاً مستقيماً ؟ فما ظنك اذن بانسان وهبه الله عقلا ، وأرسل اليه عبداً من عباده يدعوه الى ربه ، ويهديه سبيل الرشد والخير ، ولكنه يقول له كلا ! اني لن أتبعك ، ولن أسلك الطريق الذي ترشدني اليه ، بل سأبذل جهدي بنفسي ، وأهيم على وجهي في سبل مظلمة ملتوية حتى أنال غايتي ! .

وهذا شيء يدركه كل انسان بأدنى تأمل ، بل إنك اذا أعلمت فكرك قليلا ، تبين لك أن الذي يأبى أن يؤمن بالرسول ، لا يمكن ان يجد للوصول الى الله تعالى طريقاً مستقيماً ولا غير مستقيم ، لانه لا بد أن يكون قد أصيب في عقله بشيء يمنعه عن قبول الحق : فإما ان يكون ناقص الفهم ، أو أن يكون رجلا متكبراً في طبيعته شيء من الاعوجاج لا يرضى معه بقبول الحق ، أو يكون مغرقاً في التقليد الأعمى لآبائه ، ولا يرضى أن يسمع قولا يفند شيئاً من الافكار والرسوم التي ورثها عنهم ، أو يكون عبداً قد اتخذ إلهه هواه ، ولا يجد من نفسه ميلا الى قبول تعليم الرسول ، لانه يرى أنه اذا قبله ، فلن يجد لنفسه مجالا الى ارتكاب المعاصي والمنكرات التي اعتاد اقترافها في حياته . وكل من وُجد فيه سبب من هذه الاسباب ، لا يمكن أن يهتدي الى سبيل الله ، ومن كان بريئاً من هذه الاسباب ، فمن المستحيل أن يعرض عن طاعة الرسول الصادق والاستسلام لتعليمه .

والذي يجب الا تغفل عنه بهذا الصدد ، أن النبي انما يبعثه الله

تعالى ، وهو الذي يأمر الناس بالايمان به واتباع تعليمه . فكأن الذي لا يؤمن بالنبي ويتمرد عن طاعته ، يخرج على الله تعالى نفسه . وذلك أنه لا بد لك من طاعة حاكم يُوَلى عليك من قبل الدولة التي أنت من رعيتها ، فان أبيت أن تسلّم به حاكما على نفسك ، فكأنك خرجت على الدولة نفسها . إن استسلامك للدولة وإعراضك عن حاكم توليه عليك ، نقيضان لا يجتمعان . وهذا مثل ما بين الله وبين النبي المبعوث من عنده . ان الله هو الملك الحقيقي للناس جميعا ، فكل من أرسله اليهم هاديا مرشدا وأمرهم باتباعه ، فعليهم أن يؤمنوا به ويؤثروه بالطاعة على أي شيء آخر . والذي يعرض عن طاعته ، هو كافر ، سواء أكان يؤمن بالله أو لا يؤمن .

موجز تاريخ النبوة :

هذا ، ونريد أن نبين لك الآن ، كيف بدأت في النوع البشري سلسلة بعث الانبياء وترقت ، حتى انتهت بنبوة نبي جليل ، هو سيد سائر الانبياء وخاتمهم .

مما لا يخفى عليك ، أن الله تعالى انما خلق في بدء الأمر نفساً واحدة ، ومنها خلق زوجها ، ثم بثَّ منهما جميع من نراهم اليوم يقطنون في مختلف أرجاء الارض ونواحيها ، متوزعون الى مختلف الشعوب والامم . وقد اتفقت روايات جميع الامم الدينية والتاريخية، على أن النوع البشري انما بدأت سلسلته من نفس واحدة بعينها . وكذلك لم تثبت تحقيقات العلوم التجريبية (Science) ، أنه كان في مختلف مناطق الارض وأرجائها أفراد مختلفون ، تفرعت منهم هذه السلالات والامم المتعددة المنتشرة في الارض اليوم ، بل الذي يستنتجه اكثر علماء هذه العلوم قياساً ، هو أن يكون قد خلق في

اول الامر انسان واحد ، ومن هذا الانسان نفسه انتشرت هـذه السلالات الانسانية الموجودة الآن .

هذه النفس الواحدة التي بدأت منها السلالة البشرية انما هي آدم في لغتنا ، ومنها اشتقت كلمة « الآدمي » التي معناها الانسان . فآدم عليه السلام ، هو الذي اصطفاه الله وجعله أول رسول في الارض ، وامره ان يعلم ذريته الاسلام ، أي ان يبين لهم أن ليس لكم ولا لسائر هذا الكون الا إله واحد ، فلا تعبدوا ولا تستعينوا الا إياه ، ولا تسجدوا الا له ، ولا تقضوا أيام حياتكم الا وفقا لمرضاته عادلين صالحين ، فان فعلتم جزاكم جزاء المحسنين الابرار ، وان أعرضتم عن طاعته جزاكم جزاء السيئيين الاشرار .

أما الصالحون من ذرية آدم ، فاتبعوا أباهم ، واستمكسوا بما هداهم اليه من الحبل المتين والصراط المستقيم . وأما الظالمون ، فأبوا أن يتقيدوا بطاعته ، واتبعوا أهواءهم ، حتى نشأت فيهم السيئات والمنكرات من كل نوع شيئاً فشيئاً . فمنهم من أخذ يعبد الشمس والقمر والنجوم ، ومنهم من اتخذ إلهه شجرة من الاشجار ، أو حجرا من الاحجار ، أو نهرا من الانهار ، أو حيوانا من الحيوانات ، ومنهم من ظن أن لكل من الماء والنار والمرض والصحة وما اليها من قوى الطبيعة ونعمها الاخرى إلهاً خاصا به ، فعلى الانسان أن يعبد جميع هؤلاء الآلهة ويسعى لارضائها حتى تشمله جميعاً بفضلها وإنعامها وهكذا ولدت الجهالة غير واحدة من صور الشرك وعبادة الاصنام والاوثان ، وتفرعت منها ديانات متعددة في الارض . وقد حدث كل ذلك عندما انتشرت ذرية آدم في مختلف أرجاء الارض ونواحيها ، وتوزعوا الى مختلف الشعوب والامم ؛ فجعلت كل أمة لنفسها ديانة خاصة بها ، لها طائفة من الرسوم والشعائر لم تكن لغيرها . وجملة

القول إن الناس لما نسوا الله ربهم ، نسوا دينه الذي جاءهم بــه وأرشدهم اليه أبوهم آدم عليه السلام ، واتبعوا أهواءهم ، وتسربت اليهم الرسوم والتقاليد السيئة من كل نوع . وتفشت بينهم الافكار الباطلة والآراء الجاهلية ، وأخطأوا في تمييزهم بين النافع والضار والحق والباطل . ولذلك أخذ الله تعالى يبعث رسله وأنبياءه في كل أمــة ، يعلمون النــاس ويوضحون لهــم نفسالذي كــان قــد جاء بــه ــ من قبل ــ آدم عليــه السلام ، ويذكّرونهم بمــا نسوه من قبل ، ويرشدونهم الى عبادة الاله الواحد ، وينهونهم عن الشرك وعبادة الاصنام والاوثان ، ويقمعون ما راج فيهم من التقاليد الفاسدة والرسوم الباطلة ، ويهدونهم الى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم ، ويبيّنون لهم القوانين الصحيحة ويأمرونهم باتباعها . وما من قطر من أقطار الارض ، من الهند أو الصين أو فارس أو العراق أو مصر أو أفريقية أو أوربة الا خلت فيه رسل الله وانبياؤه . وما كان هؤلاء الانبياء جميعا الا على دين واحد هو الذي نسميه اليوم « الاسلام » (١) غير أنــه كان هناك فرقٌ يسير بــين طرق مختلف الانبياء في الارشاد وقوانينهم للحياة ، وذلك أن كل نبي قَصرجهده في استئصال ذلك النوع الخاص من الجهالة ، الذي كان منتشرا في قومــه ، وإصلاح تلك الافكار الباطلة ، التي كــانت راسخة فيهم خاصــة ، وحينما كانت هذه الامم في مرحلتها الاولى مــن حيث

(١) من سوء الفهم الذي نرى عامة الناس ، بل كثيرا من أهل العلم منهم ، متورطين فيه ، ان الاسلام كان بدؤه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهــذا خطأ فاحش ينبغي أن يكون ذهن الطالب سالما منــه كل السلامــة . وليعلم كــل طالب ، أن الاسلام هو الدين الحقيقي الوحيد للنوع البشري منذ أول أمره ، وكل رسول من رسل الله فيأي زمــان ومكان انما جاء بهذا الدين نفســه .

الحضارة والتمـدن والعلم والعقل ، فقد جاءها انبياؤهـا بتعاليم وشرائع بسيطة ، وكلما ارتقت من هذه الوجوه ، وَسَع لها في نطاق تعاليمها وشرائعها ومناهجها . ثم لم يكن هذا الاختلاف الا في الظاهر فقط ، فان الروح الذي يسري في جميع هذه الشرائع والتعاليم واحد ، وهو توحيد الاله في العقيدة ، والصدق والاخلاص في العمل ، والايمان بالحياة الآخرة .

وعجيب جدا ما عامل به الناس هؤلاء الرسل والانبياء ؛ فقـد آذوهم واستكبروا عن طاعتهم ، فقتلوا بعضاً منهم ، وأخرجوا بعضا من ديارهم ، حتى لم يؤمن بفريق من هؤلاء الانبياء بعد ماأفنوا أعمارهم في الدعوة الا بضعة نفر فقط . لكن عباد الله المصطفين هؤلاء ، ماوهنوا ولا استكانوا في جهودهم ، حتى أثرت دعوتهم واتبعهم كبار أمم الارض . وهاهنا اختارت الضلالة قالباً جديدا لنفسها فبدلت الامم تعاليم الانبياء بعد وفاتهم ، وادخلت في كتبهم ظنونا كاذبة واخترعت للعبادة طرقـاً جديدة من عند نفسها . فمن الناس من بدأ يعبد الانبياء أنفسهم ، ومنهم من قال إن الله نزل الى الارض بصورة نبيه ، ومنهم من جعل نبيه ابن الله ، ومنهم من اشرك نبيه بالله في ألوهيته . وهكذا عبث البشر في مختلف الازمان وسائر الاقطار بتعاليم الانبياء بعد وفاتهم : جعلوا أصناما وتماثيل للذين كسروها من قبل ، وعكفوا عليها ، ومسخوا تعاليم الانبياء وشرائعهم ومزجوها بأنواع من البدع والرسوم الجاهلية والتقاليد الكاذبة والاقاصيص الملفقة ، وخلطوها بما وضعه الانسان من القوانين من تلقاء نفسه ، حتى لم تبق للانسان بعد عدة قرون وسيلة يميز بها هداية الرسل وشريعتهم الأصلية مما خلطها به من جـاء بعدهم

من أتباعهم (١) . وكذلك غابت في ثنايا الروايات الملفقة أحوال الانبياء وسيرهم الحقيقية ، حتى مابقي عند الناس شيء يُعتمد عليه ويوثق به . غير أن جهود الانبياء ومساعيهم ما ذهبت كلها سدى ؛ فقد بقي جزء من الصدق والحق في كل أمة ، على الرغم من مسخها لتعاليم نبيها ، ومزجها إياها بما شاءت . فقد انتشرت العقيدة بالله والحياة الآخرة في جميع الامم بأية صورة من الصور ، وسلَّمت الدنيا عامة بمجموعة من مبادىء الصلاح والصدق والاخلاق ، وربى كل نبي أمته وهيأها لقبول الحق ، حتى أصبح من الممكن أن يعم الارض كلها من أقصاها الى أقصاها دين واحد بعينه . ويكون هو الدين الوحيد للانسانية ، جمعاء ، من غير مافرق بين مختلف أممها .

وهكذا بينا لك من قبل ، أنه ما كان يرسل الى كل أمة الا رسل مختصون بها ، وفيها كانت تنحصر دعوتهم . ذلك بأن الامم في تلك الازمنة كانت متباينة ، غير مختلطة فيما بينها ، وكانت كل أمة متقيدة بحدود أرضها ، فكان من الصعب في مثل تلك الاحوال ، أن ينتشر في جميع أمم الارض وشعوبها ، تعليم مشترك شامل موحد ، زد على ذلك أن أحوال كل أمة كانت مختلفة عن أحوال غيرها ، وكان الجهل مطبقاً أرجاء الارض كلها ؛ فكانت المفاسد التي تتولد من جراء هذا الجهل في الاعتقاد والاخلاق ، تختلف صورها باختلاف الاماكن والازمان . فمن أجل كل ذلك

---

(١) هكذا ياأخي الطالب بدلت الامم الماضية دينها الحقيقي — أي الاسلام — واخترعت من تلقاء نفسها ما تجد اليوم في الدنيا من مختلف الديانات المسماة بمختلف الاسماء . فما جاء السيد المسيح مثلا الا بالدين الاسلامي الحقيقي ، ولكن الذين جاؤوا بعده الهوه ومزجوا تعليمه النقي الصافي بما شاؤوا من الاباطيل من عند أنفسهم واخرجوا للناس دينا جديدا سموه « بالمسيحية » .

لم يكن بدٌ أن يأتي الى كل أمــة من أمم الارض ، رسول يهتــم بتعليمها وإرشادها الى الحق خاصــة ، ويقضي عــلى أوهامهــا الخاطئة ، وينشر فيها ــ مكانها ــ الافكار الصحيحة شيئا فشيئا ، ويصدها عن الطرق الباطلة ويهديها الى اتباع القوانين العادلة العاليه ، ويربى أفرادها كما تربي الام أطفالها الصغار . ولا يعلم الا الله كم مضى من ألوف السنين في تربية أمم الارض بهذه الطريقة ؛ حتى جاء على الانسانية حين من الدهر ، اجتازت فيهأيام صباها ، وبدأت تبلغ أشدهــا ، وارتبطت كثير من العلاقات مــع الرقي الصنــاعي والتجاري بين مختلف عناصرها ، وأصبح الناس يسافرون من بلاد اليابان والصين الى بلاد أوربة وافريقية البعيدة بالطرق البحريــة والبريــة ، وراجت الكتابــة في معظم أمم الارض ، وانتشرت فيها العلوم والفنون ، وتبودلت بينهما النظريات والافكار والموضوعات العلمية ، ونبغ فيهــا من الفاتحين وأولي البأس من دوخوا البلاد المجاورة ، وانشأوا في الارض ممالك عظيمة ، تشتمل على غير واحد من الاقطار ، ويسكنها غير واحدة من الامم ، وهكذا اجتمعت غير امة واحدة تحت نظام سياسي واحد ، وبدأ يتبدد ماكان من قبل من التباعد وعدم التعارف ، وأصبح من الممكن أن ينزل تعليم الاسلام الوحيد وشريعته الوحيدة للارض قاطبة . ولو رجعت الى ماقبل نحو الفي سنة ونيف من تاريخ الانسان ، لوجدته يتطلب بلسان حاله ديناً كاملا يكون دين البشريةجمعاء . فالديانة البوذية ، لم تكن ديناً كاملا ، وانما كانت مشتملــة على مبادىء خلقيــة ، ولكنها انتشرت مع كل ذلك في بلاد الصين واليابان ومنغوليا في جانب ، وفي أفغانستان وبخارى في الجانب الآخر . ثم جاءت الديانة المسيحية بعدها بقرون ؛ ولا شك أن السيد المسيح كــان

قد جاء بتعليم الاسلام الخالص ، ولكن الذين جاؤوا من بعده مزجوا هذا الدين بما شاؤوا من عند أنفسهم ، حتى لم يعد الا ديانة ناقصة سموها بالمسيحية . ومع ذلك انتشرت المسيحية في فارس وافريقية وأوربة ، مما يدل على أن الدنيا كانت متعطشة في ذلك الزمان الى دين عالمي كامل حتى اذا لم تجده ، اقتنعت بديانات ناقصة وآمنت بها وأخذت تنتشر فيها .

نبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم :

في هذا الزمان الذي وصفناه ، بعث للدنيا ولجميع أمم الارض وشعوبها ، رسول واحد هو سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب ، ووكل اليه أن يبلغ العالمين جميعا ، ما أوتي من الهدى ودين الحق والقانون الشامل .

واذا نظرت نظرة في جغرافية العالم ، علمت أن بلاد العرب هي انسب ارض للرسالة العالمية ؛ فهي بين آسية وافريقية وأقرب ماتكون لأوربة ، ولا سيما بالنسبة لذلك الزمان الذي كانت فيه أمم اوربة الراقية المتمدنة تسكن في الاقسام الجنوبية منها ، وبعدها عن بلاد العرب يعدل بعد الهند عن هذه البلاد .

ثم اذا قرأت ما قالت كتب التاريخ عن ذلك الزمان ، عرفت أنه ما كانت في الدنيا أمة انسب وأجدر بهذه الرسالة العالمية من الامة العربية . فقد أخذت أسباب الوهن والانحلال تدرك سائر الامم الراقية والقوى العظيمة ، بعد أن اقامت الدنيا وأقعدتها . بينما كانت الامة العربية ــ اذ ذاك ــ موفورة الجأش حامية الدم . وكان نمو المدنية وارتقاء الحضارة وانتشار الترف في الامم الاخرى قد أفسد عليها عاداتها وخصالها . أما الامة العربية فما كانت الى

ذلك العهد على مدنية تجعلها ناعمة البال ، مولعة بالبذخ والترف ، مائلة الى السفائل والرذائل ، ، وكانت هذه الامة بمنجاة تامة في القرن السادس للميلاد ، من الآثار السيئة المنتشرة في أمم الارض المتمدنة الاخرى ؛ وكان فيها من الصفات الانسانية العالية جميع مايمكن أن يكون في أمة لم تصدمها المدنية بعواصفها ؛ وكان العرب شجعانا مقاديم لايقيمون وزناً للرهب والخوف ، باسطي الايدي ، قائمين بالعهود ، أحرار الفكر والنظر ، يحبون الحرية والاستقلال ، ويؤثرونهما على كل شيء آخر ، ولم تكن أعناقهم خاضعة لامة أجنبية ، وكانت عاطفة الاستماتة في الذود عن أغراضهم تجري في عروقهم . وكانوا يعيشون عيشة ساذجة لاتعرف الترف والتنعم . لاريب أنه كانت فيهم كثير من السيئات والمنكرات ولكن الحق أنه ما كان منشأ هذه السيئات الا أنه ما خلا فيهم رسول من الله منذ ألفين وخمسمائة سنة (١) وما قام فيهم زعيم يزكيهم ويعنى باصلاح أخلاقهم وتعليمهم المدنية والحضارة ، وكانت الجاهلية منتشرة فيهم لما عاشوا عيشة الحرية في الصحراء قرونا من الزمان ، وقد بلغ تماديهم في هذه الجاهلية أنه لم يكن لأحد قبل بتهذيبهم وإخراجهم من ظلمات البهيمية الى نور الانسانية ... ولكنهم كانوا مع كل ذلك أهلا لأن يقيموا الدنيا ويقعدوها اذا عني باصلاحهم وتعليمهم رجل عبقري وقاموا على أثر دعوته وتعليمه بغاية سامية ورسالة شريفة في الدنيا . فالى مثل هذه الامة

---

(١) كان زمان ابراهيم واسماعيل عليهما السلام قبل نحو ٢٥٠٠ سنة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . وما ارسل في العرب خلال هذه المدة الطويلة رسول من عند الله تعالى .

الفتية الباسلة المقدامة ، كانت تحتاج الرسالة العالمية لنشر كلمتها وتعميم دعوتها في سائر أرجاء الدنيا ونواحيها .

ثم انظر نظرة في اللغة العربية ، فانك اذا قرأت هذه اللغة ودرست أدبها ، ظهر لك من دون أدنى ارتياب ، أنه لا يمكن أن تكون في الدنيا لغة أنسب من هذه اللغة لاداء الافكار العالية ، والافصاح عن أدق معاني العلم الالهي والتأثير في القلوب . فبالجمل الصغيرة من هذه اللغة تؤدي الموضوعات المهمة ، وتكون قوية التأثير في القلوب ... الى مثل هذه اللغة كانت تحتاج معاني القرآن الكريم . فمن حكمة الله البالغة ورحمته الشاملة بعباده إذن أن اختار أرض العرب على غيرها للنبوة العالمية . فتعال نبين لك ما جعل الشخص الذي اصطفاه الله تعالى لهذه النبوة منقطع المثال في هذه الدنيا .

ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

ارجع ببصرك الى ماقبل ١٤٠٠ سنة من تاريخ هذه المعمورة ، تجد أنه لم يكن فيها البرق ولا الهاتف ولا القطار ولا السيارة ولا المطبعة ، ولم تكن تصدر فيها الجرائد والمجلات ولا تنشر الكتب ، ولم يكن يتيسر للناس من السهولة في أسفارهم ما نجده في زماننا هذا ، فكان كل من أراد أن يسافر من قطر الى آخر ، عليه أن يسير الاشهر الطوال فكأن بلاد العرب كانت في مثل هذه الحال منقطعة عن سائر أقطار الدنيا . صحيح أنه كانت حولها بلاد الفرس والروم ومصر ، ولكن الجبال المترامية الجوانب من الرمال كانت تفصل جزيرة العرب عن هذه البلاد جميعا .

نعم كان تجار العرب يرحلون للتجارة الى هذه البلاد على ظهور

جمالهم ويصرفون في قطع الطريق اليها الاسابيع والاشهر ، ولكن ما كانت تعدو غاية هذه الرحلات شراء البضائع وبيعها . أما أرض العرب نفسها ، فما كان فيها مدنية راقية ، ولا مدرسة ولا مكتبة ، ولا انتشار للعلم والتعليم في الناس . والذين كانوا ، يعرفون منهم القراءة والكتابة ، يعدون على الانامل . ثم ما كانت معرفتهم بهما بحيث تعينهم على الالمام بما كان خارج بلادهم من العلوم والفنون في ذلك الزمان ، وما كانت فيهم حكومة تهتم بجمع كلمتهم ولا قانون يأمرهم وينهاهم ، بل كانت كل قبيلة فيهم مستقلة بنفسها . وكانوا يسلبون الناس وينهبونهم بكل حرية ، ويسفكون الدماء في الحروب الاهلية الدامية المستمرة . وكانوا لا يقيمون وزناً للنفس البشرية ، فكان من يشاء يقتل من يشاء كلما وجد الى قتله سبيلاً ، ويستولي على ماله ، وما كانت عليهم مسحة من الحضارة ، وكانت الفواحش والمنكرات والخمر والميسر نافقة السوق فيهم ، وكانوا يعرون فيما بينهم من غير كلفة ولا حياء ، حتى إن نساءهم كن يطفن بالبيت الحرام عاريات ، وما كانوا يعرفون الحلال من الحرام . وقد كانت الحرية بلغت بهم مبلغاً جعلهم لا يتقيدون بقاعدة ولا قانون ولا وازع خلقي ، ويأبون الطاعة والانقياد لحاكم من الحكام . زد على ذلك أن الجهالة كانت قد تأصلت فيهم جذورها ، وكانوا يعبدون الاصنام ويسجدون لها ، فاذا سافروا ونزلوا منزلاً وجدوا فيه حجراً جميلاً ، اتخذوه رباً لأنفسهم وقضوا حاجتهم من العبادة بالسجود له ، اي إن الاعناق التي أبت أن تخضع لأحد كانت تخضع للأحجار والأصنام وتظن أن هذه الأحجار هي التي تقضي لهم حاجاتهم ، وتحقق آمالهم وامانيهم .

في مثل هؤلاء القوم وفي مثل هذه الاحوال ولد مولود مات

عنه أبوه قبل أن يولد ، ثم ماتت عنه أمه وجده في أيام صباه ، فما
تلقى من التربية ماعسى أن يتلقاه حتى في هذه البيئة المتداعية لو
كان أبواه وجده أحياء . فلما نشأ وجد نفسه يرعى الغنم مع
اترابه من أبناءالعرب . ولما شب اشتغل بالتجارة ، وما كانت
مجالسته ومعاشرته ومخالطته إلا لاولئك العرب انفسهم الذين
سلف القول فيما كانوا عليه من الأحوال . وكان أمّياً لايعرف القراءة
والكتابة ... ولكن عاداته وأخلاقه وخصاله وأفكاره كانت مختلفة
كل الاختلاف عن عادات قومه وأخلاقهم وخصالهم وأفكارهم .
فما كان يكذب في حديثه ، ولا يؤذي أحداً بيده أو لسانه ، وكان
لين الجانب خفيف الظل عذب الكلام يحبه ويفديه كل من جالسه
مرة ؛ وما كان ليأخذ من أحد شيئاً ولو كان حقيراً بطريق غير
حسن؛ وكان من الأمانة والصدق والعفاف على حظ كبير، جعل كثيراً من
أبناء قومه يأمنونه على أموالهم الثمينة ، ويودعونه إياها ، وهو
يحافظ عليها كما يحافظ على نفسه وماله . والناس كلهم يعتمدون
عليه ، ويثقون بأمانته ، مما جعلهم يلقبونه بالأمين . وكان حييّاً
لم يظهر لأحد بدنه عرياناً ، بعد ما بلغ سن الشعور . وكان مهذباً
ينفر من الشر والرذيلة ، على الرغم من كونه قد نشأ وعاشر طول
حياته رجال الشر والرذيلة . وكان نظيفاً نزيهاً في كل عمل من
أعماله ، وكان طاهر القلب ، يتألم عندما مايرى قومه ينهبون ويسفكون
الدماء ؛ وكان يسعى لاصلاح ذات بينهم كلما حمي بينهم وطيس
الحروب والمعارك . وكان رؤوفاً رحيما لين الجانب يشاطرهم فيما
ينزل بهم من المصائب ، وينصر الأيتام والأيامى ، ويطعم الجياع ،
ويضيف أبناء السبيل ، ويكرم مثواهم ويتحمل لهم الشدائد
والخسائر .وكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة ، يعاف عبادة الأوثان

والأصنام على معاشرته لقوم كانت الوثينة فطرتهم الثانية ، ودينهم الذي ورثوه عن آبائهم كابراً عن كابر ، وما كان ليطأطىء رأسه لأحد من الخلق كأن قلبه يحدثه أن كل شيء في الأرض أو السماء لايستحق العبادة ، وأن الله واحد ليس له ، ولا يمكن أن يكون له شريك . فكان هذا الرجل يتلألأ بين هؤلاء القوم الجاهلين كما تتلألأ الجوهرة الكريمة بين الأحجار الكثيرة أو كما يتلألأ السراج في ظلمة الليل .

وبعد أن عاش في قومه عيشة نظيفة رفيعة ، وبلغ أربعين سنة ، ضاق ذرعاً بهذا الظلام المطبق على مجتمعه من كل جانب ، وأراد لنفسه النجاة من هذا البحر الخضم من الجهل والفوضى ، والانحلال الخلقي والعملي ، والشرك والوثنية ، فانه ما كان يجد فيه شيئاً يلائم فطرته . فبدأ يخرجمن مكة ، ويقضي أياماً طوالاً فيعالم الوحدة والخلوة ، يزكي روحه وقلبه بالتحنث (١) والجوع ، ويتأمل وينشد نوراً يقشع به الظلام المطبق على قومه ، ويريد شيئاً يصلح به هذه الدنيا الملأى بأسباب الخبث والفساد والفوضى .

وهناك يحدث تغير في حاله ، ويستنير قلبه فجأة بذلك النور الذي كانت تتشوف إليه فطرته ، ويمتلىء بالقوة التي ماظهرت فيه من قبل ؛ فيخرج الى قومه من خلوة الغار وينادي فيهم : أن هذه الأصنام التي تعبدونها وتعكفون عليها لاتضركم ولا تنفعكم فاتركوها ؛ وأن هذه الأرض والشمس والقمر والنجوم وما في السموات والأرض من القوى ، ماخلقها إلا الله وحده ، وهو خالقكم ورازقكم وهو الذي يميتكم ثم يحييكم ، فلا تعبدوا غيره ولا تستعينوا إلا إياه ، ولا تطلبوا قضاء حاجتكم إلا منه ، ومن الاثم ما تأتونه من أعمال السرقة والنهب والفاحشة وإدمان الخمر ولعب الميسر ،

(١) التحنث : التعبد ليالي متعددة ، واعتزال الاصنام .

فانتهوا عنها ؛ واصدقوا في أقوالكم وأعمالكم ، واعدلوا ، ولا تقتلوا نفساً إلا بحق ، ولا تسلبوا الناس أموالهم ، ولا تأخذوا شيئا ولا تعطوه إلا بالحق ، وكلكم بشر والبشر كلهم سواء . وليس الشرف والفضل بالنسب ولا باللون والملبس ولا بالجاه والثروة ، وانما هما بالتقوى والصلاح والخير . فمن كان صالحاً يتقي الله وينهى نفسه عن السوء ، فهو الشريف الكامل في إنسانيته ، ومن لم يكن كذلك ، فليس من الشرف والفضل في شيء ولا حظ له في الآخرة . وكلكم مجموعون الى ربكم بعد حياتكم الدنيا ولا ينفعكم في محكمته العادلة شفاعة ولا خلة ولا رشوة ، ولا تسألون عنده عن علو نسبكم وإنما ينفعكم فيها إيمانكم وأعمالكم الصالحة . فمن كان منكم مؤمناً قد عمل الصالحات دخل الجنة ، ومن لم يكن عنده شيء منها، خسر خسراناً مبيناً وكان من أصحاب النار .

لكن قومه بدأوا يؤذونه ، لا لشيء ، إلا أنه يعيب عاداتهم ورسومهم الجاهلية التي ورثوها عن آبائهم ، ويصد الناس عن عبادة الأوثان والاصنام ويدعوهم الى الاسلام لله وحده ، ولذلك آذوه وسبّوه وأهانوه ورموه بالحجارة وضيقوا عليه الخناق وتآمروا على قتله ، وما زالوا ينزلون به من أنواع الشدائد والآلام أشد ما كانوا يقدرون على إنزاله ، حتى اضطر صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث عشرة سنة الى الهجرة من وطنه . ولكنهم ما شفوا غليل نفوسهم بعد ذلك كله ، وما فتئوا يعملون على إيذائه وإزعاجه في المدينة التي التجأ اليها بعد مغادرة وطنه .

لماذا تحمل هذا العبد الصالح كلَّ هذه الشدائد والمصائب وصبر عليها من قومه ؟ ذلك لأنه أراد أن يرشدهم الى صراط الحق المستقيم . وقد عرضوا عليه أن يملكوه على انفسهم ، أو يجمعوا له من أموالهم ، حتى يكون أكثرهم ثراءً على أن يقلع عما هو عليه

من الدعوة إلى الله . ولكنه رفض كل ذلك رفضاً وأبى إلا الاستمرار في دعوته . فهل يمكن أن يكون في الدنيا رجل أكثر منه صلاحاً وصدقاً وإيثاراً ؟ إنه لا يتحمل كل هذه الشدائد والآلام في سبيل نفسه ، ولكن لصالح غيره من عباد الله ، وهم يرمونه بالحجارة ويغمزونه بأقبح الكلمات ولكنه لا يدعو لهم إلا بالخير .

ثم تفكر قليلا في ذلك التغيير العظيم الذي حدث فيه بعد خروجه من الغار : كان الكلام الذي يتلوه على الناس بالغاً من الفصاحة والبلاغة قمتها ، حتى ، لم يأت بمثله أحد قبله ولا بعده . كان العرب ، كما لا يخفى عليك ، يفتخرون بشعرهم وخطابتهم وفصاحتهم في الكلام ، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا الكلام ، فأعياهم وطأطؤوا رؤوسهم عجزا . والذي يدعو الى العجب أكثر من ذلك أن اللسان الذي كان يستعمله ويتكلم به في أحاديثه للناس وفي خطبه ، ما كان يعادل لسان ذلك الكلام بلاغةً وفصاحةً . فاذا قارنت بين ذلك الكلام وبين خطبه وأحاديثه ومحاوراته للناس . تجلى لك الفرق واضحاً جلياً بينهما .

قد بدأ هذا الامي — صلى الله عليه وسلم — الذي لم يولد ولم يقم طول حياته إلا في الصحراء بين الاميين ، يأتي بحكم ومواعظ لم ينطق بها أحد قبله ولا استطاع أن ينطق بها أحد بعده ، بل لم يسمعها الناس من لسانه نفسه قبل أن يبلغ أربعين سنة من عمره .

وكذلك وضع هذا الأمي — صلى الله عليه وسلم — قوانين في الاخلاق والاجتماع والسياسة وفي سائر الشؤون الانسانية ، لايكاد يدرك حكمها وأسرارها فحول العلماء وكبار الحكماء على بعد نظرهم وتجارب حياتهم ، إلا بصعوبة عظيمة ، بل ستظل تنكشف للدنيا في المستقبل من حكم هذه القوانين ومقاصدها ، على قدر ماتزداد تجاربها على مر الايام . لقد وضع هذا الأمي قوانينه قبل أكثر من

ثلاثة عشر قرناً . ولكننا لا نستطيع أن نجد فيها اليوم موضعاً واحداً يحتاج الى التغيير وإعادة النظر ، أو مادة واحدة يمكن حذفها أو إزالتها عن مكانها ، مع أن القوانين الوضيعة الأخرى وضعت مراراً وغير فيها مراراً .

وفي مدة الـ ٢٣ سنة الوجيزة ، صار كثير من أعدائه الذين وقفوا لـه بالمرصاد ، وتآمروا على قتله ، ولم يألوا جهداً في إيذائه ، من أصدقائه المفدّين له بالارواح . . وكل ذلك بفضل أخلاقه وشرفه ونبله وتعاليمه السامية فقد قامت في وجهه القوىالعظيمة الجبارة ، فانكسر أهلها وانقلبوا صاغرين أمامه ؛ وعندما انتصر عليهم لم ينتقم من أحد ، بل غمرهم بفضله وإكرامه وإنعامه . فقد غفر لمن قتلوا عمـه وأخاه في الرضاعة حمزة بن عبد المطلب وبقروا بطنه ولاكوا كبده ، وأسبغ كسوة الغفران والعفو الشامل على من رموه بالحجارة وأخرجوه من وطنه . . وما كاد لأحدٍ ، ولا نقض عهده ، ولا اعتدى عليه في حرب ، وكان ذلك مما لايجترىء لأجله حتى أعدى أعدائه أن يتهموه بالغدر والظلم ونقض العهد ، وذلك هو الذي سخر له قلوب العرب جميعاً ، الى أن أخرجهم ــ بتعليمه وهدايته ــ من دياجير الجهل والهمجية ، وجعلهم امـة حائزة قصب السبق في النظام والتهذيب . والعرب الذين ما كانوا ليتقيدوا بقانون مـن القوانين ، أخرج منهم أمة في غاية من التقيد بالنظام والقانون ، لايوجد لها نظير في تاريخ العالم . والذين ما كانوا ليرضوا بطاعة أحد والانقياد لأمره ، جعلهم منقادين لدولة عظيمة مفدين لها بأرواحهم وأموالهم . والذين ماكانوا من الاخلاق والآداب في شيءٍ ، قد زكى آدابهم وهذب أخلاقهم ، حتى إن الدنيا لا تكاد تقضي عجبها اليوم عندما تقرأ وقائعهم وأحوالهم في كتب التاريخ . والذين كانوا أحط أمم الارض وأضعفها ، نالوا في أنفسهم بفضل تأثير هـذا الرجل ، ودعوته خلال ٢٣ سنة ، قوةً سخرت لهم دول فارس

والروم ومصر ، وقاموا يعلمون الدنيا الشرف والمدنية والاخلاق والانسانية ، وانتشروا بتعليم الاسلام وشريعته في أنحاء آسية وأفريقية وأوربة النائية .

تلك هي الآثار التي تركها الامي صلى الله عليه وسلم في نفوس العرب . أما ما فعله هذا التعليم في نفوس سائر أمم الارض ، فهو أكثر من هذا وأدعى الى العجب ، فقد أحدث ثورة عظيمة في أفكار سائر أهل الارض وعاداتهم وقوانينهم . فاذا سرحت النظر في الذين أعرضوا عن اتّباعه ، وخالفوا عن أمره ، وناصبوه العداء ، فضلاً عن الذين اتّبعوه وجعلوا منه أسوة لانفسهم ، وجدتهم ما استطاعوا أن يمنعوا أنفسهم التأثر بتعليم هذا الأمي . كانت الدنيا قد نسيت توحيد الله ، فجاء هذا الأمي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكّرها به من جديد ، حتى إن ديانات الوثنيين والمشركين لاتجد اليوم بداً من دعوى التوحيد لله تعالى . وكذلك كانت المبادىء التي لقنها الناس في الاخلاق والآداب بالغة القوة ، حتى تأثرت ولا تزال تتأثر بها أخلاق سائر أمم الارض وآدابها . وكذلك كانت المبادىء التي وضعها في القانون والسياسة والمدنية والاجتماع ، من الصحة والصدق والاتقان بمكانٍ جعل الاعداء والجاحدين بصدق كلامه يقتبسون وَيستَرِقون منها ، بل لايزالون يقتبسون ويسترقون منها الى اليوم .

هذا الرجل كما بينا لك من قبل ، ما نشأ الا مع الفطرة ، في أمة عريقة في الجهل والهمجية ، ولم يشتغل إلا برعي الغنم أو التجارة حتى بلغ أربعين سنة من عمره . ولم يتلقَّ أي نوع من التعليم والتربية ، فكيف تجمعت فيه مظاهر الكمال هذه دفعة واحدة بعد بلوغه أربعين سنة من عمره ؟ ومن أين حصلت له هذه المعرفة والعلم ؟ ومن أين وجدت هذه القوة غير العادية ؟ فتراه قائداً منقطع المثال من قواد الجيش ، وقاضياً ماهراً من القضاة ومقنّنا

غير عادي من المقنّنين وفيلسوفاً نطاسياً من الفلاسفة ، ومصلحاً مبتكراً من مصلحي الاخلاق والتمدن ، وسياسياً محنّكاً من رجال السياسة في حين واحد . ثم تراه يعبد ربه ساعات طوالاً في الليل ، على كثرة ما عليه من الاشغال المهمة في النهار . وكذلك تراه يؤدي ما عليه من الحقوق لأزواجه وأولاده وعشيرته ، ويخدم الفقراء والمساكين ، ويواسي المنكوبين واليتامى ، ولا يعيش إلا عيشة الفقراء على ما نال من ملك عظيم : ينام على الحصير ، ويكتسي الخشن ، ويطعم القديد ، بل قد تمر عليه أيام لايطعم فيها شيئاً .

فلو أنه قال للناس بعد هذه الامور المدهشة : إني لست كمثلكم وأنا فوق النوع البشري ، لما وسع أحداً من الناس أن يكذبه ويرد عليه دعواه . ولكنه لم يقل ذلك ، ولم يدَّعِ أن هذه المواهب غير العادية من تلقاء نفسه ، بل إنه قال دائما ، إنه ليس شيء من هذه المواهب من عند نفسي ، وكل ما عندي من شيء فهو لله ومن الله ؛ وأن هذا الكلام الذي جئتكم به ، وقد عجز عن الاتيان بمثله الجن والانس ، ماهو من عند نفسي ، ولا من بنات فكري ونتيجة قريحتي ، بل هو كلام الله ولا يرجع الفضل فيه إلا إلى الله وحده ، وكل ما آتي به من عمل ، فليس من كفاءتي الشخصية ، بل الله تعالى هو الذي وفقني له ، وإني لا أعمل شيئاً ولا أقوله إلا حسب ما يأمرني به ربي . فقل لي بعد كل ذلك : مالنا لا نؤمن بمثل هذا الرجل الصادق ، ولا نسلم بم نبياً مرسلاً من عند الله تعالى ؟ أنظر إلى مواهبه في جانب : ماأنجبت الانسانية قبله ولا بعده رجلاً يماثله فيها ، وإلى صدقه وأمانته بالجانب الآخر : لا يفتخر بما أتى به ، ولا يكسب الثناء على نفسه بنسبته إلى نفسه ، وانما يعزوه الى الله الذي أكرمه بها . فما لنا بعد ذلك الاَّ نصدقه فيما يقول ؟ وما لنا نكذبه عندما يقول : إن هذه الكفاءات ومظاهر الكمال كلها من

عند الله ، فنقول له : بل إنها مما اختلقتَه أنت ونبع من ذهنك وأفكارك ! ! إن هذا الرجل الصادق الامين ، أبى أن ينسب الى نفسه المحاسن التي كان من الممكن بكل سهولة أن ينسبها الى نفسه ، وما كان أحد غيره يعرف مصدرها . فلو انه ادعى بناءً عليها أن له شخصية فوق عامة البشر ، لما استطاع أحد أن يفند دعواه ، فمن أصدق من هذا الرجل وأكثر منه أمانة ونزاهة ؟ !

ألا إن هذا الرجل الصادق هو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وصدقه هو الدليل على نبوته . إن أعماله الجليلة وأخلاقه السامية ، وما حدث في حياته الطيبة من الوقائع ، كلها ثابتة في كتب التاريخ مدونة فيها . فكل من يقرأها بقلب سليم متحرياً الحق والصدق ، يشهد له قلبه من غير ما شك أنه — صلى الله عليه وسلم — نبي مرسل من عند الله تعالى ، وان الكلام الذي عرضه على قومه هو القرآن الكريم الذي نتلوه . فكل من يقرأه بقلب رحيب فاهماً معناه ، لابد له من الاقرار بأنه كتاب منزل من عند الله تعالى ، وأنه لا قِبَل لأحد من البشر أن يأتي بمثله .

ختم النبوة :

هذا ، وينبغي لك الآن أن تعرف أنه لاسبيل الى معرفة الاسلام ومعرفة صراطه المستقيم غير تعليم النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي مرسل الى النوع البشري كافة ، وقد ختمت به سلسلة الوحي والنبوة والرسالة ، والله تعالى قد أرسل بواسطته كل ما أراد أن يرسله الى الناس من الهداية والنور . فكل من كان طالباً للحق واراد ان يكون عبداً مسلماً لله تعالى ، فلا بد له أن يؤمن بخاتم النبيين ، ويذعن كل الإذعان لما جاء به من الهدى والبينات ، ويتبع طريقه .

الدلائل على ختم النبوة :

إذا أدركت حقيقة النبوة ، تبين لك أن الأنبياء لايولدون كل يوم ، وكذلك فليس من الضروري أن يكـون لكل أمـة نبي في كل حين من أحيانها ، فان حياة النبي حياة ما يأتي به من الهدايـة والتعليم . فهو حي مادامت هدايته حية . قد مات الانبياء الأقدمون ، لأن الناس بدلوا تعاليمهم ومزجوها بما شاؤوا من أهوائهم ، ولا يوجد اليوم كتاب من كتبهم في صورته الأصلية ، ولا يكـاد يدّعي أتباعهم أن لديهم كتبهم في صورتها الأصلية ، وكذلك نسي الناس سيرة هؤلاء الأنبياء ، ولا يكادون يعثرون على أحوالهم الصحيحة المعتمد عليهـا ، حتى إنه لا يمكن الجزم بزمانهم أو مكـانهم الذي ولدوا فيـه ، وما جاؤوا به في حياتهم من الأعمال . وكذلك من المستحيل أن يعرف الناس اليوم ، كيف قضى هؤلاء الانبياء أيـام حياتهم ، وماذا أمروا بـه وماذا نهوا عنه ، وذلك هو موتهم . أما نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم ، فلا يزال حياً لأن هدايته حـية ، ولا يزال بأيدينا ذلك القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه بألفاظه الأصلية ، وما دب دبيب التغير إلى حرف من أحرفه أو نقطة أو حركـة من حركـاته ؛ ولا تزال سيرته وأحوال حياته وجميـع أعماله وأقواله صلى الله عليه وسلم مدونة محفوظة في الكتب على مامضى عليها من السنين الطوال ، كأننا نشاهد اليوم شخص النبي صلى الله عليه وسلم بأعيننا ، ونسمـع كلامـه بأسماعنا ، وليس في الدنيا رجل قد حوفظ على وقائع حياتـه كما حوفظ على وقائع حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن الممكن أن نقتدي به ونتأسى بأسوته في كـل شأن من شؤون حياتنا في كل حين من أحياننا ، فذلك هـو الدليل على أن لا حاجة للبشر اليوم الى نبي مرسل من عند الله تعالى بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا يرسل نبي بعد نبي إلا لأحد الاسباب الثلاثة الآتية :

١ ـ أن يكون تعليم النبي المتقدم قد انمحى وظهرت الحاجة الى عرضه على الناس مرة أخرى .

٢ ـ أو أن يكون تعليم النبي المتقدم غير كامل فهو بحاجة إلى إتمامه .

٣ ـ أو أن يكون تعليم النبي المتقدم منحصراً في أمة خاصة وتكون أمة أخرى أو سائر الامم بحاجة إلى نبي مرسل مثله (١) .

وقد انعدم كل سبب من هذه الأسباب الثلاثة اليوم :

١ ـ إن تعليم النبي محمد صلى الله عليه وسلم حي ، ولا يزال بأيدينا من الوسائل مايمكن أن نعلم به في كل حين من الاحيان ماكان دينه صلى الله عليم وسلم ، وأي هداية جاء بها من عند الله تعالى ، وأي طريق للحياة روجه في الناس . وما هي السبل التي جاهد ليصد الناس عنها . فاذا كانت هدايته لاتزال حية في متناول الأيدي ، فلا حاجة إلى نبي آخر يجددها ويعرضها على الناس مرة أخرى .

٢ ـ قد نالت الدنيا تعليم الاسلام الكامل بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . فلا حاجة اليوم إلى أن يضاف إليه أو ينقص منه شيء ، وأيضا ليس فيه قصور ينبغي أن يأتي لتلافيه نبي آخر بعده صلى الله عليه وسلم ، فقد زال السبب الثاني أيضا .

٣ ـ كانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالمين جميعاً ، وما كانت منحصرة في أمة دون أمة أو زمن دون زمن . فلم يبق

---

(١) ويمكن أن يكون السبب الرابع أيضاً أن يرسل مع النبي نبي آخر لتأييده وتصديقه . ولكنا لم نذكره في هذا المقام ، لانه ماورد له في القرآن الا مثالان فقط ، ولا يمكن أن يستنتج من هذين المثالين المستثنين أن الله يرسل الانبياء ويرسل معهم أنبياء آخرين لتأييدهم وشد أزرهم على قاعدة مطردة عامة .

لأمة من الأمم حاجة إلى أن يرسل إليها نبي خاص بهـا من عند الله ، فهكذا زال السبب الثالث أيضاً .

ولأجل كل ذلك قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : خاتم النبيين ، أي من جاء آخرهم .

فلا حاجة للدنيا اليوم إلى نبي آخر ، وانما هي بحاجـة إلى رجال يتبعون النبي صلى الله عليه وسلم ويدعون الناس إلى اتّباعه ، ويفهمون هديـه صلى الله عليـه وسلم ، ويعملون بـه . ويقيمون في الارض دَولة ذلك القانون الذي جاء بـه محمد صلى الله عليـه وسلم من عند الله تعالى .

الفصل الرابع

الإيمان مفصلاً

الايمان بالله ـ معنى لااله الا الله ـ حقيقة لا الـه الا الله ـ تأثير عقيـدة التوحيد في حياة الانسان ـ الايمان بملائكـة الله ـ الايمـان بكتب الله ـ الايمان بأنبياء الله ـ الايمان باليوم الآخر ـ الحاجة الى عقيدة التوحيد ـ صدق عقيدة الآخرة ـ الكلمة الطيبة .

يجدر بك أيها الطالب ، قبل أن تتقدم ، أن ترجع قليلاً وتستعرض مرة أخرى ماحصل لك من المعلومات في الفصول السابقة :

١ ـ لاشك أن الاسلام هو طاعة الله تعالى وامتثال أمره ، ولكنه لمـا لم يكن هناك من سبيل الى معرفـة ذات الله تعالى وصفاته ، والطريق الذي يرضاه من عباده لقضاء حياتهم ، والكيفية الصحيحة لمـا يحصل لهم في الآخرة من ثواب أو عقاب عـلى أعمالهم ، إلا النبي المبعوث من عند الله تعالى ، كان التعريف الصحيح لدين الاسلام « أن نؤمن بتعاليم النبي ونعبد الله وفقاً لهدايته » . فكـل من أعرض عن هدي النبي ولم يتخذه وسيلة الى معرفة

الله ومعرفــة قانونه فليس بمسلم . وإن ادعى أنه مطيــع لله منقــاد لقانونه .

٢ ــ لقد كان الأنبياء يأتون إلى مختلف أمم الأرض في الزمن الماضي كل نبي إلى أمة على حدة . وكان يبعث بعض الاحيــان في أمة واحدة عــدة أنبياء يأتي بعضهم تلو بعض . فكان الاسلام اسماً لذلك الدين كان يأتي به أي نبي من الأنبياء لأيــة أمة من الامم . والاسلام وان ظل على حقيقة واحدة في كل زمان وفي كل أمة . ولكن كان هناك بعض الاختلاف في شرائع مختلف الامم ، أي قوانينها وطرق عبادتها . فمــا كان على أمة أن تتبع نبي أمــة غيرها ، وان كان عليها أن تؤمن بجميع أنبياء الله تعالى .

٣ ــ ولمــا بعث محمد صلى الله عليه وسلم الى الأرض ، أكمل الله تعالى به تعاليم الاسلام ، الذي أنزله إلى الناس جميعاً ليكون لهم شريعة واحدة بعينها . فما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم إلى أمة خاصة من الامم ، أو زمن معين من الأزمان ، بل هي الى الناس جميعا أبد الدهر ، وقد نسخ برسالته جميع ما مضى قبله من مختلف شرائع الاسلام التي جاء بها مختلف الأنبياء الى مختلف الأمم . فلن يأتي للناس نبي آخر ولا شريعة أخرى بعده صلى الله عليه وسلم الى يوم القيامــة . وما الاسلام الآن الا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي لن يأتي بعده من عند الله رجل يجب الايمانُ بــه ، ويكون الانسان كافراً اذا لم يؤمن بــه .

وتعالى نبين لك الآن ماهي الامور التي أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نؤمن بها :

الايمان بالله :

فأول وأهم ماأمر النبيُ صلى الله عليه وسلم أن نؤمن به ، هو « لا إله الا الله ». وهذه الكلمة هي التي يقوم عليها بناء الاسلام، وهي التي تميز

المسلم من الكافر والمشرك والملحد ، وهي التي تحدث الفرق العظيم بين الانسان المؤمن بها والانسان المعرض عنها . فالذين يؤمنون بها طائفة لهم الفلاح والسعادة والفوز والرقي في الدنيا والآخرة ، والذين يعرضون عنها طائفة أخرى لهم الخسران والخزي والخذلان في الدنيا والآخرة .

ولا يأتي هذا الفرق العظيم بين الرجلين بمجرد نطق أحدهما بكلمة مؤلفة من اللام والألف والهاء وغيرها من الاحرف الأخرى بلسانه . فانك اذا كنت مصاباً بالبرداء (الملاريا) مثلاً ، فلن تشفى ، بمجرد أن تنطق بلسانك : « كينا .. كينا » ولو رددتها ألف ألف مرة ، دون أن تتناولها فعلاً . وكذلك لاتنفعك هذه الكلمة ــ لا إله إلا الله ــ ، إذا نطقت بها من غير أن تشعر بمعناها ، أو تعرف ما أقررت به أو تتفطن الى ما ألقيت على نفسك من المسؤولية العظمى بهذا الاقرار . الحق أن الفرق الحقيقي لايحصل، الا اذا نزل معنى هذه الكلمة في سويداء قلبك ، وأيقنت بصدقها كل الايقان ، ولا يكون اعتقادك بصدقها أقل رسوخا من اعتقادك أن النار شيء محرق ، أو أن السم شيء مهلك . أي أنه كما يحول ايمانك بخاصية النار بينك وبين ان تلقي فيها يدك ، أو كما يمنعك ب « لا إله إلا الله » ، بينك وبين أن تأتي بشيء صغير أو كبير من الشرك أو الكفر أو الالحاد ، في العقيدة أو العمل .

معنى لا إله الا الله

وعليك أن تعرف الآن ما هو « الاله » . فمعناه لغةً « المستحق للعبادة » أي من كان من حيث كبرياؤه وجلالة شأنه وعلو منزلته ، جديراً بأن يعبده الناس ، ويطأطئوا له رؤوسهم في العبادة .

وكذلك يشمل معنى الاله « الحائز لقوة جبارة يتحير العقل الانساني في إدراك مداها » ، وكذلك يتضمن « من كان غير محتاج الى أحد ، وكان الجميع محتاجين اليه مضطرين الى استعانته في جميع شؤون حياتهم » . وكذلك يدخل في معنى اله « من كان محتجبا عن الناس ، أي كانت قواه غير مرئية » (١) . وكلمات « خدا » الفارسية و « ديوتا » بالهندية و God بالانكليزية كلها مرادفات لهذه الكلمة ــ الاله ــ وكذلك توجد في لغات العالم الاخرى كلمات تشابه هذه الكلمة أيضاً .

وكلمة « الله » علم للحق تعالى . فمعنى « لا إله إلا الله » انه ليس في هذا الكون أحد جدير بان يعبده الناس ، ويسجدوا له بالطاعة والعبادة ، الا الله تعالى . فما لهذا الكون من مالك ولا حاكم الا هو وحده ، وكل شيء مفتقر اليه مضطر الى استعانته ، وهو وراء الحواس ، ويتحير العقل الانساني في ادراك ذاته .

حقيقة لا اله الا الله :

هذا هو معنى « لا إله إلا الله » لغةً . وتعال نبين لك حقيقة هذه الكلمة .

ان كل ما بلغنا من أحوال الانسان منذ أقدم عصور تاريخه ، وما شوهد في هذا العالم من آثار الامم البشرية قديمها وحديثها ، يدلنا على أن الانسان ما أتى عليه حين من الدهر الا اتخذ فيه لنفسه إلهاً وعبده . وكذلك كل ما يوجد اليوم في مختلف بقاع الارض ، من الأمم والشعوب ، وحشيّها ومتمدنها ، تعتقد لنفسها إلهاً وتعبده ، وهذا أمر يدل كل الدلالة على أن تصور الاله متمكن من نفس الانسان ، وان فيه شيئاً يجبره على أن يتخذ لنفسه إلهاً من الآلهة ويعبده . فما سبب كل هذا ؟ يمكنك أن تعرف هذا ، بالقاء نظرة في ذات نفسك ، وفي حال البشر جميعاً .

---

(١) راجع كتاب « المصطلحات الاربعة في القرآن » للمؤلف .

ان الانسـان ما خلق الا على العبدية ، وهو فقير محتاج ضعيف من حيث الفطرة . فكم هناك من شيء يحتاج اليه لاستبقاء حياتـه ليس في متناول يده وقد يناله مرة ويُسْلَبُه أخرى .

وكم هناك من شيء ينفعه ويريد الحصول عليه ، وقد يفوز به مرة ولا يفوز به أخرى . وذلك ان الحصول عليه مما ليس في متناول قدرتـه .

وكم هناك من شيء يضره ويخيب آماله ويضيع عليـه جهوده ويصب عليه المصائب والمحن والامراض ، وهو يريد ان يدفعه عن نفسه ، فيندفع مرة ولا يندفع أخرى . فيدل كل ذلك على أن وقوعه وعدم وقوعه عليه ، أو اندفاعه عنـه ، ليس في مكنة الانسان نفسه .

وكم هناك من شيء تملأه عظمته وجلالة شأنه رعباً : يرى الجبال والأنهار والبهائم الضارية المخيفة ، ويشاهد عواصف الرياح وسيول الميـاه وزلازل الارض ، ويعرض لـه كثير من مناظر صعق الرعـد واسوداد السحب القائمة ولمعـان البرق ونزول الامطار الغزيرة ، فما أعظم هذه الاشياء وأقواها واكبرها في عين الانسان ، وما أضعفه وأحقره وأعجزه بازائها . . ذلك ما يخيل اليه عندما ينظر الى هـذه الاشياء ويتأمل شأنها .

فبالنظر الى هذه المناظر المختلفة ، والتأمل في أحـوال عجزه وضعفه ، ينشأ في قلبـه الشعور بأنه عبد ضعيف محتاج الى غيره. وبنشوء هذا الشعور في قلبـه ، ينشأ فيه تصور الاله : تتمثل لـه اليدان اللتان تملكان مثل هذه الاشياء العظيمة ، ويجبره الشعـور بعظمتهما وجلالة شأنهما على أن يطأطىء لهما رأسه بالعبادة والطاعة ويجبره الشعور بقوتهما على أن يعرض عليهما حاجته وعجزه وافتقاره ويجبره الشعور بقواهما النافعة ، على أن يبسط إليهما يده راجيـاً مستغيثاً ويجبره الشعور بقواهما الضارة على أن يخافهما ويتعوذ

من غضبهما .

يظن الانسان ، وهو في أسفل درجات الجهل ، أن هذه الأشياء التي يراها قوية عظيمة ، أو يشعر بنفعها أو ضررها لنفسه بوجه من الوجوه ، هي « الآلهة » في حد ذاتها ؛ ومن أجل ذلك تراه يعبد الوحوش والانهار والجبال ويسجد لها ، ويعبد الارض والنار والمطر والرياح والقمر والشمس والنجوم الخ ...

ولكن عندما ينقشع عنه هذا الجهل قليلا ، وينفذ اليه قبس من العلم والنور ، يعلم أن هذه الاشياء كلها ضعيفة عاجزة مثله ، وأن الموت يدرك أكبر الحيوان وأضخمه كما يدرك أتفه الحيوان واحقره ، وأن الانهار الكبيرة تجف ويغور ماؤها هي دائما عرضة للمد والجزر، وأن الانسان يكسر الجبال وينحتها ، وان الارض لا تقدر ان تخصب وتنبت من بطنها شيئا بنفسها ، وانما تحتاج في كل ذلك الى الماء ، وأنها تجف وتقحل عندما لا تجد الماء الكافي لها ، وان الماء لا يأتي من السماء بنفسه ، وانما يأتي به الهواء الذي يهب ويسوق السحاب ، وأن الهواء ليس بقادر على أن يهب ويكون نافعاً أو غير نافع للناس بنفسه، وإنما يتوقف كل ذلك على أسباب أخرى ، وكذلك يرى أن الشمس والقمر والنجوم في السماء مذعنة لقانون مطرد لا تكاد تخرج عليه وتتحرك عنه ولو قيد شعرة . فهنا يتوجه ذهنه الى ان هذه الاشياء الظاهرة ، تستند في عملها الى قوى مستترة في الكون تملكها وتتحكم فيها ، وهي قادرة على كل شيء . ومن هنا تنشأ في ذهن الانسان العقيدة بالآلهة المتعددة الخافية ، فيظن أن لكل من النور والهواء والماء والمرض والصحة والجمال والقبح إلهاً خاصاً ، يتصور له في ذهنه صورةً خياليةً ، يعكف عليها ويسجد لها .

ثم عندما يزداد لديه هذا النور ، نور العلم والمعرفة ، يجد أن في نظام الكون مواظبةً على قانون مهيمن وضابطة محكمة قوية ،

ويشاهد كيف يهب الهواء ، وينزل المطر ، وتدور السيارات في السماء ، وتتغير الفصول ، وتنضج الأثمار والزروع ، تحت قاعدة مطردة ، وكيف تتحد القوى الكثيرة المختلفة وتعمل متعاونةً فيما بينها في هذا النظام . ويرى من إتقان هذا القانون وإحكامه ، أن الوقت الذي قدر لكل عمل من الاعمال في هذا الكون ، تتجمع فيه أسبابه وتتعاون فيما بينها من غير تخلف ولا تأخر . وهكذا فبالنظر في هذا الكون ونظامه المطرد المحكم ، يضطر المشرك الى ان يُسلِّم بأن لهذا الكون إلهاً هو أكبر الآلهة يحكمهم ويرأسهم ، لأنه لو كان هؤلاء الآلهة متفرقين مستقلين بأمرهم ، لاختل نظام الكون وعمَّه الفساد والفوضى . وهويسمِّيهذا الاله الاكبر « الله » أو «برميشور» أو « خداي خدايكان » ، ولكنه يشرك بعبادته هؤلاء الآلهة الصغار ، ويظن أن الألوهية كالملوكية الدنيوية ، فكما أن للملك في الدنيا كثيراً من الوزراء يعتمد عليهم ، ويشاورهم في القيام بأمر ملكه ، وينوط بهم كثيرا من مناصبه ، كذلك يستعين هذا الاله الأكبر بهؤلاء الآلهة الصغار في القيام بتدبير هذا الكون ، فلا يمكن الوصول اليه أو القربى عنده ، ما لم يُعمَل على استرضاء هؤلاء الآلهة الصغار ، فعلى الانسان أن يعبدهم ، ويعكف عليهم أيضاً ، ويتقي سخطهم ، ويجعلهم وسيلة للوصول الى الاله الأكبر ، ويبسط اليهم يديه بالاستمداد والاستنصار ، ويعمل على استرضائهم بالنذور والقرابين .

ثم عندما يترقى علم الانسان ويزداد بصيرة ، يأخذ عدد الآلهة يقل عنده شيئاً فشيئاً : يتفكر في الآلهة الذين اتخذهم الجهلاء ، ويتأمل فيهم واحداً واحداً ، ويعلم أنهم ليسوا بآلهة ، بل إن هم إلا عباد كسائر العباد ، ان لم يكونوا أقل منهم قوة وأضعف منهم حيلة ، فيتركهم ويكف عن عبادتهم واحداً بعد آخر ، حتى لا يبقى له منهم في آخر الامر إلا إله واحد ، غير أنه لا يزال في أفكاره كثير من الجهل عن هذا الاله الواحد ، فمن الناس من يظن أن لله جسماً كأجسامنا ،

وهو قاعد في ناحية يرى الناس يعبدونه ويسجدون له ، ومنهم من يحسب أن لله صاحبةً وأولادا ، وهو يتناسل كما يتناسل الانسان ، ومنهم من يزعم أن الله ينزل الى الارض بصورة البشر ، ومنهم من يقول : إن الله قد تنحى عن أمر هذا الكون بعد ما خلقه وجعله يعمل ، فهو الآن مستريح في مكان من الأماكن ، ومنهم من يقول : إنه لا بد عند الله من شفاعة الشافعين من الأولياء والارواح المقدسة واتخاذهم اليه وسيلة ، ومنهم من في ذهنه صورة لله تعالى يرى من الضروري أن يضعها أمامه عند العبادة ، فهكذا يبقى في ذهنه كثير من الأوهام الواهية على كونه معتقداً بالتوحيد ، وهي التي لأجلها يتورط في أوحال الشرك والكفر . وما كل ذلك إلا من نتائج الجهالة .

وآخر هذه الدرجات وأعلاها « لا إله الا الله » . وذلك هو العلم الذي أرسل به الحق تعالى ، أنبياءه ورسله ، الى عباده في كل قطر وزمان . فقد أوتيه آدم أولا ، ثم أوتيه نوح وابراهيم وموسى وغيرهم من الانبياء ، وجاء به في آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم . وهو العلم الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الجاهلية ، وما ابتلي الانسان بكل ما ذكرنا آنفاً من صور الكفر والشرك وعبادة الأصنام ، إلا لإعراضه عن تعليم الانبياء ، واعتماده على حواسه وعقله . وتعال نبين لك ما تتضمن هذه الفقرة الموجزة من حقيقة ثابتة ومعانٍ عالية :

١ ــ فأول شيء وأهمه هو تصور الألوهية . وذلك أن هذا الكون العظيم ، الذي يعجز العقل الانساني عن تدبره ، وعن معرفة مبدئه ومنتهاه ، والذي قد خُلق ولا يزال فيه من الخلق ما لا يأتي تحت الحصر ، والذي يحدث ويتجدد فيه كل يوم من الحوادث والمخترعات ما يبهر العقل الانساني ، لا يمكن أن يكون إلهه إلا حياً لا يموت ولا يحدث ، صَمَداً لا يحتاج الى غيره ، قادراً على كل شيء ، حكيما لا يخطىء ، عليماً لا يخفى عليه شيء ، غالباً لا يُعصى له أمر ، مالكاً

لقوى غير محدودة ، يستمد منه كل شيء في هذا الكون أسبابَ حياته ورزقه ، منزّهاً عن المعايب والنقائص ولا قبل لأحد بالتدخل في أموره .

٢ ــ ولا بد أن تكون صفات الألوهية هذه كلها متجمعة في ذات واحدة بعينها ، ولا يمكن أن تستوفيها ذاتان اثنتان استيفاءً سويا ، فانه لا يمكن أن يكون الغالبُ للجميع والحاكم على الكل الا ذاتاً واحدةً بعينها . وكذلك من المستحيل أن تتوزع هذه الصفات بين مختلف الآلهة ، فانه اذا كان هذا حاكماً ، وذاك عالماً ، وغيرهما رازقاً ، ثم لم يتعاونوا فيما بينهم فلا بد للدنيا من الدمار والانقراض . وكذلك لا يمكن أن تنتقل هذه الصفات من واحد الى آخر ، أي يكون هـذا إلهاً مرة وذاك اخرى ، فأنّى للاله الذي لا يقدر على استبقاء حياته ، أن يمنح الحياة غيره ، وللذي لا يستطيع أن يحافظ على ألوهيته ، أن يحكم هذا الكون ويتصرف فيه . والحق أن الانسان على قدر ما ينال من نور العلم يزداد يقيناً بان صفات الألوهية يجب ألا يستوفيها الا ذات واحدة بعينها .

٣ ــ واذا جعلت في ذهنك هذا التصور الشامل الصحيح للألوهية ، ثم نظرت في هذا الكون ، علمت أن كل شيء تراه أو تحسه بحاسة من الحواس أو تحيط به علماً ، ليس بمتصف بهذه الصفات . وجميع الموجودات في هذا الكون محتاجة الى غيرها مغلوبة على أمرها : تحيا وتموت ، وتصلح وتفسد ، ولا تبقى على حالة واحدة مستقلة ، ولا تقدر أن تأتي بعمل من تلقاء نفسها وحسب مشيئتها ، ولا قبل لها بالخروج على القانون الجاري عليها من فوقها ، وهي تشهد بلسان حالها ، أن ليس شيء منها بإله ، ولا يوجد عليه أدنى مسحة من الألوهية ولا دخل له في الألوهية قليلاً ولا كثيراً . فهذا هو معنى « لا إله » .

٤ ــ اذا سلبت كلَّ شيء صغير أو كبير الالوهية في هذا الكون ،

فلا بد لك من الاقرار بأن هناك ذاتاً هي فوق كل شيء ، ولا يستوفي صفات الألوهية في الوجود الا هي وحدها ، وهذا هو معنى « لا إله الا الله » .

وهذا هو العلم الأكبر ، والمعرفة التامة . كلما ازددت بحثاً في هذا الشأن ، علمت أن هذا هو مبدأ العلم وهذا هو منتهاه . واذا تناولت علماً من العلوم التي تبحث في حقائق هذا الكون ، كالطبيعيات والكيمياء والهيئة والأرضيات والحياتيات والحيوانيات والانسانيات، وسبرت غور التحقيق في بابه ، ازددت ايماناً وتصديقاً بأن لا إله الا الله ، وانكشف لك عند كل خطوة من خطواتك في ميدان التحقيق العلمي ، ان لا معنى لشيء في هذا الكون ، بعد إنكار هذه الحقيقة الناصعة المهمة .

تأثير عقيدة التوحيد في حياة الانسان :

هذا ، وتعال نبين لك الآن كيف يؤثر الاقرار بالتوحيد في حياة الانسان ، ولماذا يكتب الاخفاق والخسران لمن لا يؤمن بهذه الكلمة .

١ ــ لا يمكن أن يكون المؤمن بهذه الكلمة ضيق النظر ، فانه يؤمن بالذي خلق السماوات والارض ، ويملك مشارق الارض ومغاربها ، وهو رب العالمين يرزقهم ويربيهم . فهو لا يستغرب شيئاً في هذا الكون بعد هذا الايمان ، لأن كل شيء فيه ملك ورعية لمالكه هو ، وليس في هذا الكون شيء يقوم في وجهه ، ويجد عليه عاطفة الحب والمواساة والخدمة . بل هو واسع النظر ، لا يضيقه شيء كما لا يضيق شيء ملك الله تعالى . وذلك مالا يمكن أن يظفر به رجل يقول بآلهة متعددة ، أو يعتقد في الله صفات الانسان الناقصة المحدودة ، أو لا يقول بالله أصلاً .

٢ ــ إن الايمان بهذه الكلمة ينشىء في الانسان من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء . فهو يعلم أن الله الواحد هو المالك

الحقيقي لكل ما في هذا الكون من القوى ، وأنه لا ضار ولا نافع الا هو ، وأنه لا محيي ولا مميت الا هو ، وأنه لا صاحب للحكم والسلطة والسيادة الا هو وحده . فهذا العلم اليقيني يغنيه عن غير الله ، وينزع من قلبه خوف سواه ، فلا يطأطىء رأسه أمام أحد من الخلق . ولا يتضرع اليه ، ولا يتكفف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته . ومثل هذه الصفة لا يمكن أن يتصف بها إنسان غير مؤمن بهذه الكلمة . ومما يستلزمه الشرك والكفر والالحاد أن يطأطىء المرء رأسه لغيره من الخلق ، ويراه قادراً على جلب النفع والمضرة اليه ، ويرهبه ويعلق به آماله .

٣ — وفي الوقت نفسه ، أي مع الانفة وعزة النفس ، ينشىء الايمان بهذه الكلمة التواضع في الانسان . فالذي يقول بأن لا إله الا الله ، لا يمكن أن يكون بطراً متكبراً ، ولا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وثروته وكفاءته . فانه يعلم ويستيقن أن الله هو الذي قد وهب له كل ما عنده ، وهو قادر على سلبه إياه اذا شاء. أما الانسان الملحد الذي لا يؤمن بوجود الله ، فهو يبطر ويتكبر ويشمخ بأنفه اذا حصلت له نعمة عاجلة ، إذ أنه يعد هذه النعمة نتيجة لجهوده أو كفاءته ، وكذلك يتكبر المشرك عندما ينال نعمة من النعم الدنيوية ، لانه يظن أن له على آلهته دالّة لا يتمتع بها غيره .

٤ — ان المؤمن بهذه الكلمة ، يعلم علم اليقين ، أن لا سبيل له الى النجاة والفلاح ، الا تزكية النفس والعمل الصالح . فانه يؤمن بالاله الغني الصمد العادل الذي لا يمتّ اليه أحد بصلة ، وما لأحد من دخل أو نفوذ في ألوهيته . أما المشركون والكفار فانما يقضون أيام حياتهم على امانيَّ كاذبة . فمنهم من يقول : ان ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا ، عند أبيه ، ومنهم من يقول نحن ابناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا ، ومنهم من يقول : إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا ، ومنهم من يقدم النذور والقرابين الى آلهته ويزعم أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء .

فهذه المعتقدات الفاسدة وأمثالها ، لا تزال تركس هؤلاء الناس في أوحال الذنوب والمعاصي ، وهم يَلهَون ـ اتكالا عليها ـ عن تزكية نفوسهم وإصلاح أعمالهم . أما الملحدون الذين لا يعتقدون أصلاً ان هناك خالقاً فوقهم ، يسألهم عن أعمالهم ، ويجازيهم عليها ، إن شراً فشر وإن خيراً فخير ، فيحسبون أنفسهم أحراراً في الدنيا ، غير مقيدين بقانون من فوقهم ، وانما الشهوات النفسية هي إلههم وهم عبيدها . .

٥ ـ والذي يقول بهذه الكلمة ، لا يتسرب اليه اليأس ولا يقعد به القنوط في أي حال من الأحوال ، فانه يؤمن بالذي له خزائن السماوات والأرض ، والذي لا تعد نعمه وآلاؤه ولا تقدر قواه . فهذا الايمان ينعم على قلبه بطمأنينة غير عادية ، ويملؤها سكينة وأملاً،ولو أهين في الدنيا وطرد عن كل باب من أبوابها ، وضاقت عليه سبل العيش ، وانقطعت عنه الأسباب المادية طراً ، فان عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه . فلا يزال يبذل الجهود المتتابعة متوكلاً على الله ، ومستمداً منه المعونة في جميع أحواله . فهذه السكينة القلبية والطمأنينة الروحية ، لا يمكن حصولها بشيء غير عقيدة التوحيد ، فبما أن الكفار والمشركين والملحدين تكون قلوبهم ضعيفة ، وهم يعتمدون على القوى المحدودة ، فسرعان مايحيط بهم اليأس ، ويساورهم القنوط عند الشدائد ، وقد يفضيبهم أحيانا الى الانتحار .

٦ ـ والايمان بهذه الكلمة يربي الانسان على قوة عظيمة من العزم والاقدام والصبر والثبات والتوكل ، حينما يضطلع بمعالي الأمور في الدنيا ابتغاءً لمرضاة الله ، يكون على يقين تام أن وراءه قوة ملك السماوات والأرض ، تؤيده وتأخذ بيده في كل مرحلة من مراحله . فلا يكون رسوخه وثباته وصلابته التي يستمدها من هذا التصور ، بأقل من رسوخ الجبل وثباته وصلابته ، فلا تكاد أي مصيبة من مصائب الدنيا ، ولا أي قوة من قواها المخالفة ،

تثبطة عما يكون قد عقد العزم .. وأنَّى للشرك والكفر والالحاد بمثل هذه القوة والثبات .

٧ ــ وهذه الكلمة تشجع الانسان وتملأ قلبه جرأة . وذلك أن الذي يُجبِّنُ الانسانَ ويوهن عزمه شيآن : حبه للنفس والمال والأهل ، أواعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الانسان ، وأنه قادر على أن يدرأ عن نفسه الموت بحيلة من الحيل . فايمان المرء ب « لا إله إلا الله » ينزع عن قلب الانسان كلاً من هذين السببين ويطهره من أدرانه كل التطهير : ينزع الأول بأن يجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله ، ومستعداً لأن يضحي في سبيل مرضاته بكل غال أو رخيص عنده . وينزع الثاني بأنه يلقي في روعه ، أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ، ولا قنبلة ولا مدفع ، ولا سيف ولا حجر ولا خشب ، وإنما يقدر على ذلك الله وحده ، وهو قد عين لموته وقتاً لاتقدر قوى الدنيا جمعاء أن تستعجله إليه . ومن أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى وحده ، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر الرصاصات والقنابل ، فانه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد ، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنىَّ بمثل هذه القوة للمشركين والكفار والملحدين ، الذين يعتبرون نفوسهم أعز شيء لديهم ، والذين يعتقدون ان الموت يقبل باقبال العدو ويدبر بادباره ؟ !

٨ ــ والايمان ب « لا إله إلا الله » ، يرفع قدر الانسان وينشىء فيه الترفع والقناعة والاستغناء ، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم ، وما اليها من الصفات القبيحة والعواطف السافلة الاخرى . ولا يكاد يخطر بباله ، أن يميل للحصول على نجاحه الى طرق دنيئة غير مشروعة ، فانه يعتقد أن

ليس الرزق إلا بيد الله وحده يبسطه لمن يشاء ويقدره على من يشاء ، وما العزة والقوة والشهرة والسلطة والنفوذ والغلبة إلا بيد الله وحده ، يعطي منها مايشاء لمن يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، وما على الانسان إلا السعي المشروع على قدر وسعه ، ولا ينحصر النجاح أو الخسران إلا في فضل الله وحده ، ولا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى . أما الكافرون والمشركون والملحدون ، فإنما يحسبون نجاحهم أو خسرانهم منحصراً في مساعدة القوى الدنيوية أو مخالفتها ، فهم عبيد الطمع والشره ، ولا يتحرجون لنجاحهم من الارتشاء والتملق والمؤامرة وما إليها من الوسائل الدنيئة الاخرى ، ويعضون الأنامل على غيرهم حسداً لهم على نجاحهم ، ولا يتركون حيلة مشروعة أوغير مشروعة لاسقاط محسوديهم أو مخالفيهم ، إلا أتوها بكل وقاحة .

٩ — وأهم شيء وأجدره بالذكر في هذا الصدد ، أن الأيمان ب « لا إله إلا الله » يجعل الانسان متقيداً بقانون الله ومحافظاً عليه . فإن المؤمن يكون على يقين ، بسبب اعتقاده بهذه الكلمة ، أن الله خبير بكل شيء ، وهو أقرب اليه من حبل الوزيد ، وأنه إن أتى بعمل في ظلمه الليل أو حالة الوحدة ، فإن الله يعلمه ، وأنه إن خطر بباله شيء غير جميل ، فإن علم الله محيط به ، وأنه إن كان من الممكن له أن يخفي أعماله عل ىكل واحد في الدنيا ، فإنه لا يستطيع إخفاءه على الله عز وجل ، وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أيٍّ كان ، فانه لايستطيع أن يفلت من الله عز وجل ، فعلى قدر ما يكون هذا الايمان راسخا في ذهن الانسان ، يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده : لايجرؤ على اقتراف ما حرم الله ، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله به ، ولو في ظلمة الليل أو حال الوحدة والخلوة ، فإن معه شرطة لا تفارقه حيناً من أحيانه ، وهو

يتمثل دائما أمام عينه تلك المحكمة العليا التي لايكاد الانسان ينفذ من دائرة حسابها ، ومن أجل ذلك فقد جعلَ الايمان ب «لا إله إلا الله» أوَّل شرطٍ وأهمه ليكون الانسان مسلماً ، فإن المسلم ، كما بينا لك معناه في الفصل الأول من هذه الرسالة ، هو العبد المطيع المنقاد لله تعالى ، ولا يمكن أن يكون الانسان عبداً مطيعاً منقادا لله تعالى ، الا اذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله .

وهذا الايمان ب « لا إله إلا الله » ، هو الركن المهم الأساسي من تعليم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو مركز الاسلام وأصله ومصدر قوته ، وكل ما عداه من معتقدات الاسلام وأحكامه وقوانينه انما تقوم على هذا الأساس نفسه ولا تستمد قوتها الا منه . والاسلام لا يبقى منه شيء لو زال زوال هذا الأساس من مكانه .

الايمان بملائكة الله :

والأمر الثاني الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن نؤمن به بعد الله عز وجل ، هو وجود الملائكة . وأكبر فائدة لهذا الايمان ، ان تتطهر عقيدة التوحيد من شوائب الشرك وأدرانه وأخطاره كلها.

وقد عرفت من قبل ان المشركين انما أشركوا بالله نوعين من الخلق : نوع من الخلائق التي لها وجود جسدي وتدركها الأبصار كالشمس والقمر والنجوم والنار والماء وكبار الناس الخ ... ونوع من الخلائق التي ليس لها وجود جسماني ، وهي متوارية عن الأنظار وتقوم بتدبير أمور الكون وراء الحجاب ، فبعضها ترسل الهواء والرياح ، وبعضها تسوق السحاب وتنزل المطر ، وبعضها تهيء النور ، الخ ... فالخلائق من النوع الاول ، التي هي ماثلة أمام الانسان ، تنتفي الوهيتها بمجرد لفظة « لا إله إلا الله » . أما الخلائق من النوع الثاني التي هي خافية على الانظار ولا تأتي تحت الحواس فهي التي يولع المشركون بها عامة ، ويرون فيها آلهة ومعبودين

لانفسهم ، أو ذرية لله تعالى ، وهي التي يصورون لها صوراً خيالية، يسجدون لها ، ويتقربون اليها بالنذور . لهذا فقد بين الاسلام عقيدة مستقلة اخرى لينزه عقيدة الناس بالتوحيد عن هذه الشعبة الثانية من الشرك .

وقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن تلك الخلائق النورانية ، التي يرى فيها البعض آلهة لانفسهم أو يجعلونها ذرية لله تعالى ، إنما هي ملائكة الله تعالى لا دخل لها في ألوهيته في حقيقة الامر ، وهم يطيعون الله تعالى ولا يعصون له أمرا ، والله تعالى يدبر بهم ملكه ، وهم يقومون بأوامره حق القيام ، وهم لا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم ، ولا يستطيعون ان يقترحوا على الله شيئاً بفضل قوتهم ، ولا قبل لهم بأن يشفعوا اليه في أحد . ومن الذل والعار على الانسان أن يعبدهم أو يستعينهم ، فان الله قد أسجدهم لآدم عليه السلام يوم خلقه ، وأعطاه من العلم مالم يعطهم ، وجعله خليفته في الارض من دونهم . فأي عار على الانسان أشنع من أن يسجد للملائكة الذين قد سجدوا له من قبل .

فمن جهة نهانا النبي صلى الله عليه وسلم أن نعبد الملائكة ونشركهم بالله في الوهيته ، ومن جهة أخرى بيّن لنا أن هؤلاء الملائكة عباد الله المصطفون ، وهم منزهون عن الأخطاء والآثام ، وقد فطروا على ألاّ يعصوا لله أمراً ، ويفعلوا كل ما يؤمرون به من فوقهم، وهم منقطعون دائماً الى العبادة . والله تعالى قد اصطفى منهم ملكا كريماً — وهو جبريل عليه السلام — ينزل بالوحي على رسله وأنبيائه . وهو الذي نزل بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ومن هؤلاء الملائكة من يلازمون الناس في كل حين من أحيانهم ، ويشهدون كل ما يأتون به من حركة حسنة أو غير حسنة،

ويسمعون ويسجلون ما يصدر عنهم من كلام حسن أو غير حسن . وعندهم سجل لأعمال كل واحد من البشر وأقواله ، يعرضونه عليه يوم يقوم بين يدي الله تعالى في محكمته ، ويشهدون فيه بكلمايكون قد جاء به في الحياة الدنيا من سيئة أو حسنة في السر والعلن .

أما حقيقة الملائكة وكيفية خلقهم ، فلم نخبر عنها بشيء ، وانما أمرنا أن نؤمن بوجودهم ، ولا سبيل الى معرفة كيفيتهم ، ومنالجهالة أن نختلق شيئاً عن كيفية خلقهم من عند أنفسنا ، ومن الكفر أن ننكر وجودهم ، فانه لا حجة لأحد على هذا الانكار ولا معنى لانكار وجود الملائكة الا تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم . والحق أننا لا نؤمن بوجود الملائكة الا لأن نبي الله الصادق المصدوق أمرنا أن نؤمن بذلك.

الايمان بكتب الله :

والأمر الثالث الذي أمرنا بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم أن نؤمن به ، هو كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله .

فكما أن الله تعالى قد نزّل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو قد أنزل كتبه ــ من قبل ــ على من سبقهمنانبيائه، وقد أخبرنا بأسماء بعض هذه الكتب ، كصحف ابراهيم التي أنزلت على ابراهيم عليه السلام ، والتوراة التي أوتيها موسى عليه السلام ، والزبور الذي أرسل به داود عليه السلام ، والانجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام . أما الكتب الاخرى التي أوتيها سائر الانبياء ، فلم نخبر عن أسمائها ، ولا نكاد نقطع عن كتاب ديني آخر بأنه كان أو لم يكن من عند الله تعالى . غير أننا نؤمن أن كل كتاب نزل من عند الله تعالى هو الحق .

إن هذه الكتب التي اخبرنا بأسمائها ، لم يبق لصحف ابراهيم

منها وجود في الدنيا . أما التوراة والزبور والانجيل ، فانها وان كانت لا تزال عند اليهود والنصارى ، ولكنهم قد حرّفوها كثيراً وبدّلوا كلِمَها عن مواضعها وحذفوا منها وأضافوا اليها كثيراً من الآراء من عند أنفسهم ، حتى إن اليهود والنصارى أنفسهم ، يعترفون اليوم ، أنه ليست عندهم تلك الكتب الاصلية التي نزلت على موسى وداود وعيسى عليهم السلام ، وانما بأيديهم تراجمها ، التي ما ازلت هي نفسها منذ قرون عرضة للتغيير والتبديل والزيادة والنقص ، وكذلك يظهر بمجرد قراءة هذه الكتب أن فيها كثيراً من الامور التي لا يمكن ان تكون من عند الله . فليست هذه الكتب الموجودة اليوم في الدنيا ، نفس تلك الكتب التي أنزلها الله تعالى على موسى وداود وعيسى عليهم السلام ، وقد اختلط فيها كلام الله بكلام الناس ، حيث لم يبق بأيدي الناس من وسيلة لتمييز كلام الله من كلام الناس . فما أمرنا بالايمان بالكتب الماضية ، الا من حيث ان الله كان أرسل رسله بأحكامه الى كل امة من الامم الماضية قبل القرآن ، وانه ما كانت هذه الأحكام الا من عند الله الذي أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، وانما جاء ليحيي ذلك الهديَ الذي ناله الناس في الزمن الماضي ثم أضاعوه أو بدّلوه أو خلطوه بكلام الناس .

والقرآن هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى ، والفرق بينه وبين الكتب الماضية من عدة وجوه :

١ ــ ان الكتب التي نزلت قبل القرآن ، قد ضاعت نسخها الاصلية ، وما بقي بأيدي الناس الا تراجمها كما عرفت آنفاً ، أما القرآن ، فلا يزال محفوظا بعين الكلمات والاحرف التي نزل بها من عند الله تعالى ، وما دب دبيب التغير الى حرف من أحرفه او حركة من حركاته .

٢ ـ قد خلط الناس كلامهم بكلام الله في هذه الكتب ، ففي كتاب واحد يوجد كلام الناس ، والتاريخ القومي ، وسِيَرُ الأكابر والانبياء ، والتفسير ، والمسائل الشرعية التي استنبطها الفقهاء ، حيث لا يمكن أن يعرف فيه كلام الله من كلام غيره . أما القرآن ، فنجد فيه كلام الله تعالى خالصاً نقياً غير مشوب بشيء من كلام آخر . وكل ما كتبه المسلمون في التفسير أو الحديث أو الفقه أو سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو سيرة الصحابة أو تاريخ الاسلام ، لم يخلطوه بالقرآن ، وكله مدون محفوظ في كتب غير القرآن .

٣ ـ ان جميع الكتب التي توجد اليوم عند مختلف أمم الارض ، لا يمكن أن يُثبت عن واحد منها باستناد تاريخي ، أنه نزل على النبي الذي ينسب اليه ، بل هناك كثير من الكتب الدينية ، لا يعرف عنها اصلاً على من نزلت وفي أي زمن نزلت . أما القرآن ، فقد تضافرت الشواهد التاريخية القوية القاطعة بنزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ، مما لا يكاد يشك فيه أحد ، بل من المعلوم فوق ذلك عن كل آية منه ، متى وأين نزلت عليه صلى الله عليه وسلم .

٤ ـ إن اللغات التي نزلت بها الكتب القديمة ، قد أكل عليها الدهر وشرب ، وأصبحت في خبر كان منذ زمن غير يسير ، فلا يوجد المتكلمون بها في أي بقعة من بقاع الأرض اليوم ، وقليل جداً أولئك الذين يقدرون أن يفهموها . ولو أن مثل هذه الكتب كانت باقية بأشكالها الأصلية اليوم لكان من المستحيل للناس أن يفهموها ويتبعوا احكامها . أما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، فلغة حية يتكلم بها عشرات الملايين من البشر ويفهمها مئات الملايين منهم في

هذه المعمورة ، وهي تُعلَّم وتُدرَّس في كل قطر من أقطار العالم ، ومن السهل لكل من أراد تعلمها أن يتعلمها ، ومن الممكن لمن لا يتسع وقته لتعلمها أن يجد في كل مكان من يُفهمه معاني القرآن وأحكامه.

٥ ـ وجميع ماعند مختلف أمم الارض اليوم من الكتب الدينية ، إنما وُجِّه الكلام في كل واحد منها الى أمة خاصة دون سائر الامم . وكذلك اذا نظر المرء فيما يوجد في هذه الكتب من الاحكام ، علم من غير شك ، أن أكثرها كان لزمن خاص ، جاءت وفقاً لأحواله ومطالبه وحاجاته ، ولا حاجة للناس اليها ولا يمكن العمل بها في هذا الزمان ، فالظاهر أن هذه الكتب كانت خاصة بزمن دون سائر الأزمان وأمة دون سائر الامم ، وما كان كتاب منها للناس جميعاً . وكذلك فان الامم التي جاءت لها هذه الكتب ، ما كانت لها الى الأبد ولكن كانت لها لمدة محدودة من الزمن . ولكنك اذا نظرت بهذه النظرة في القرآن ، علمت أن الخطاب موجه في كل مكان منه الى الانسان من حيث جنسه ، ولا يخطر ببال القارىء عند أية آية من آياته ، انها خاصة بأمة دون سائر الامم . وكذلك يمكن العمل بكل ما جاء في القرآن من الاحكام في كل قطر وفي كل زمان ، مما يشهد شهادة ناطقة بأن القرآن للعالمين جميعاً إلى أبد الدهر.

٦ ـ والكتب القديمة وإن جاء كل كتاب منها مشتملاً على أمور من الصدق والخير ، ولقن الانسان فيه مبادىء الاخلاق والصلاح ، وأرشد الى طريق مستقيم لقضاء حياته وفقاً لمرضاة الله ، ولكن أي كتاب منها لم يستوف الحسنات والفضائل كلها حيث لم يترك منها شيئاً . والذي يمتاز به القرآن عن سائر هذه الكتب

انــه قد استجمع فيه كل ما كان في الكتب القديمة من الفضائل منتشرة ، وقد ُبيّن فيه ما لم يأت فيها من الحسنات والخيرات .

٧ ــ ولأجل ما كان من الانسان من تصرف في الكتب الدينية القديمة ، تسرب اليها كثير من الامور التي لاتوافق العقل والحقيقة وتقوم على الظلم والشطط وتفسد على الانسان عقيدته وعملــه ، بل تحتوي بعضهــذه الكتب على أمور من قبيل الفحشاء والمنكر والانحلال الخلقي . لكن القرآن منزه كل النزاهة عن مثل هــذه الامور وليس فيه شيء يخالف العقل أو يمكن تخطئته بالبرهان أو التجربة ، ومـــا في أمر من أوامره أو حكم من أحكامــه ظلم أو اعتداء ، وما فيـــه شيء يضل الانسان ، وليس فيه عين ولا أثر للفحشاء والمنكر وعدم التقيد بالقيود الخلقية ، وكله مملوء من أوله الى آخره بالحكمة العالية ، والموعظة الحسنة ، وتعليم النـــاس العدل ، وإرشادهم الى الصراط المستقيم ، والى أحسن الأحكـــام والقوانين .

فهــذه هي المزايا ، التي لأجلهـــا أمر أهل الارض جميعـــاً أن يؤمنوا بالقرآن ، ويتبعوه وحده دون سائر الكتب ، فان أقصى ما كان أو يمكن أن يكون الانسان محتاجاً اليه من الارشاد والهداية ، لقضاء حياتــه حسب مرضاة الله تعالى ، قد بينــه القرآن بدون نقص ولا زيادة ، فلم يعد الانسان بحاجة الى كتاب بعد ما جاءه القرآن .

أمَا وقد عرفت الفرق بين القرآن وبين سائر الكتب ، فقــد أصبح من السهل عليك أن تتبين ماينبغي أن يكون من الفرق بين الايمان بالقرآن والايمان بسائر الكتب . فما الايمان بالكتب القديمة

إلا الى حدّ التصديق ، أي أن هذه الكتب كانت من عند الله ، وكانت صادقة ، وما جاءت الا لنفس الغرض الذي جاء لاتمامه القرآن ، فهو من حيث أنه كلام الله الخالص ، وهو الحق ، وكل لفظ منه محفوظ وكل كلمة منه صادقة ، واتباع كل أمر من أوامره فريضة وكل ما يخالف ويضادّ أحكامه جدير بالرفض .

الايمان برسل الله :

لقد أمرنا بعد الايمان بكتب الله أن نؤمن برسله :

وقد بينا لك في الفصل السابق أن جميع أمم الارض جاءها رسل الله تعالى ، دعوا الناس الى الاسلام الذي دعاهم اليه في ختامهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأنه ما كانت جميع رسل الله وأنبيائه الا من سلسلة واحدة بعينها ، فمن كذب أحداً منهم فقد كذبهم جميعاً ، ومن صدّق أحداً منهم ، أصبح من المحتوم عليه أن يصدقهم جميعاً ، هب أن لديك عشرة رجال لايقولون الا شيئاً واحداً ، فاذا صدقت واحداً منهم ، فقد صدقتهم جميعاً . وان كذبت واحداً منهم ، فقد كذبتهم جميعاً ، لانهم يقولون بما يقول به . فالذي يفرق بين رسل الله ، ويؤمن ببعض ولا يؤمن ببعض ، هو الكافر حقاً .

وقد بين لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ، أن عدد من أرسل الى مختلف الامم من أنبياء الله مائة وأربع وعشرون ألفاً (١٢٤,٠٠٠) من النفر . ولو أنك تفكرت في عمر هذه الدنيا ، وما خلا فيها الى الآن من الأمم والشعوب ، ما رأيت هذا العدد لرسل الله كثيراً ؛ أما الذين قد قصهم القرآن علينا من هؤلاء الرسل ، فيجب الايمان بهم صراحةً ، وأما الذين لم يقصهم علينا منهم ، فقد أمرنا أن نؤمن بهم ، لأن

جميع من أرسلهم الله تعالى الى عباده لتعليمهم ودعوتهم الى سواء السبيل ، كانوا صادقين . فنحن نؤمن بكل من عسى أن يكون جاء من رسل الله ، الى بلاد الهند والصين وايران ومصر وافريقية وأوربة ، وسائر نواحي الارض وأرجائها ، ولكننا لا نستطيع أن نقول عن فلان منهم بالضبط إنه كان أو لم يكن رسولا من الله ، وذلك أننا لم نخبر عن ذلك بشيء . غير أنه لا يجوز لنا بحال من الاحوال ان نذم أو نذكر بالسوء أحداً من الذين يتبعهم رجال مختلف الديانات في الأرض ، وما أدرانا إن كانوا من رسل الله حقاً ، ثم بدل الناس دينهم من بعدهم ، كما بدل أتباع موسى وعيسى عليهما السلام دينهما الحق من بعدهما ، وإن كان لنا رأي نظهره ، فليكن عن طقوس دياناتهم ورسومهم في وضعها الحاضر ، ولنسكت سكوتاً تاماً عمّن أسسوا هذه الديانات ، لئلا يصدر عنا شيءيخالف الأدب في شأن رسولٍ من رسل الله .

ولا فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين سائر الأنبياء ، إذ كانوا جميعاً صادقين مرسلين من عند الله ، هادين الى صراطه المستقيم ، أمرنا ان نؤمن بكل واحد منهم ، غير أن الفرق بينه وبينهم — على هذه المماثلة — من ثلاثة وجوه :

١ — أرسل هؤلاء الأنبياء الى امم خاصة ولأزمان محدودة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد أرسل الى العالمين جميعاً ، وحتى يوم القيامة ، كما عرفت في الفصل السابق .

٢ — لقد انقرضت تعاليم هؤلاء الرسل انقراضاً تاماً ، أو لم تبق محفوظة بأشكالها الاصلية ان كانت قد بقيت في هذه الدنيا . وكذلك لا توجد سيرُهم وأحوالهم ، وقد ضاعت حقيقتها في روايات

الناس وأقاصيصهم التي اختلقوها من عند أنفسهم عن حياة هؤلاء الرسل . فلا يمكن أن يتبعها المرء ، وإن ودّ ذلك وسعى اليه . أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فتعاليمه وسيرته وأقواله وأعماله وأخلاقه وعاداته وخصاله ، كلها مدونة في الكتب في متناول أيدي الناس . فالحق أن الحي الوحيد من بين جميع رسل الله وانبيائه هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وحده الذي يمكن للناس أن يتبعوه ويهتدوا بهديه .

٣ ــ إن تعاليم الاسلام الذي جاء به الأنبياء الأقدمون ، ما كانت تعاليم كاملة ، فما جاء نبي من هؤلاء الانبياء إلا أصلح تعاليم الانبياء الاقدمين وأحكامهم وقوانينهم وطرق هدايتهم ، وحذف منها وأضاف اليها . فهكذا كان عامل الرقي والكمال والاصلاح يعمل عمله قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، لذا لم يحفظ الله تعالى تعاليم هؤلاء الرسل بعد مضي زمانهم ، فان الناس ما كانوا بحاجة الى تعليم ناقص سابق اذا جاءهم تعليم كامل جديد ، وأخيراً أوتي النبيمحمد صلى الله عليه وسلم تعليمَ الاسلام الكامل الناضج من كل جهة ، وهكذا ُنسخت شرائع سائر الانبياء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن اتباع الناقص بإزاء الكامل مما يخالف العقل . ومن اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد اتبع الأنبياء جميعاً ، ذلك لأن كل ما كان من الخير في تعاليم الأنبياء الاقدمين يوجد اليوم في تعليم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أعرض عنه واتبع نبياً غيره ، فقد ُحرم كثيراً من الخيرات التي أضيفت فيما بعد ، لم تكن في تعليم من التعاليم الماضية .

ومن أجل ذلك لا بد للبشر جميعاً أن يؤمنوا بمحمد صلى الله

عليه وسلم ، ويتبعوا تعليمه ، وعلى المسلم أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من ثلاثة وجوه :

١ ــ أنه رسول صادق من عند الله تعالى .

٢ ــ وأن هدايته كاملة وليس فيها شيء من النقص أو الخطأ .

٣ ــ وانه آخر نبي جاء الناس من عند الله تعالى الى أية امة من الامم الى يوم القيامة . ولا يأتي بعده رجل يكون الايمان به من شرط الاسلام ويكون من لا يؤمن به من الكافرين .

الايمان باليوم الآخر :

والأمر الخامس الذي أمرنا ان نؤمن به هو اليوم الآخر . والذي علينا أن نؤمن به عن ذلك اليوم هو :

١ ــ ان الله سيمحو هذا العالم ، وكل ما فيه من الخلائق ، في يوم يعرف بيوم القيامة .

٢ ــ ثم يحييهم ــ سبحانه وتعالى ــ مرة اخرى ، ويجمعهم بين يديه ، وذلك هو الحشر أو البعث .

٣ ــ ثم يقدّم الى محكمة الله تعالى ، كل ما يكون الناس قد كسبوه من خير أو شر في حياتهم الدنيا ، بدون نقص ولا زيادة .

٤ ــ والله تعالى يزن لكل واحد من البشر اعماله الصالحة والسيئة ، فمن رجحت كفة اعماله الصالحة غفر له ، ومن رجحت كفة أعماله السيئة عاقبه .

٥ ــ والذين يغفر لهم يدخلون الجنة ، والذين يعاقبهم يدخلون النـــار .

الحاجة الى الايمان باليوم الآخر :

وهذه العقيدة بالآخرة ، عرضها محمد صلى الله عليه وسلم ،

كما عرضها سائر الانبياء والرسل على الناس ، وما زال الايمان بها شرطاً من شروط الاسلام في جميع الازمان . وقد كفرَّ الانبياء كلهم من لا يؤمن بها أو يشك فيها ، فانه لا معنى للايمان بالله وكتبه ورسله بدون هذه العقيدة . وهذا أمر واضح لا إشكال في فهمه . فانه اذا طُلب اليك أن تفعل شيئاً ، فأول سؤال ينشأ في ذهنك : « أية فائدة ترجع عليك اذا فعلته ، وأي ضرر يصيبك اذا لم تفعله ». لماذا ينشأ هذا السؤال في ذهنك ؟ ذلك لأن الانسان يرى بسابق فطرته ، أن لا طائل تحت أمر لا يرجع عليه بجدوى . ولأجل ذلك لا تنشط لعمل لا ترجو منه فائدة لنفسك ، ولا تعزف عن عمل تستيقن انه لن يصيبك منه ضرر . وهذه هي حال الريب والشك . إن كل شيء ترتاب في فائدته لا يمكن أن ترغب فيه وتنشط للقيام به . وكذلك كل شيء تشك في ضرره ، لا يمكن ان تحاول اجتنابه والابتعاد عنه . انظر الى الاطفال لماذا يلقون بأيديهم الى النار ؟ ذلك لأنهم لا يعلمون علم اليقين أن النار شيء محرق ، ولماذا يفرون من الدرس وطلب العلم ؟ ذلك لأن فوائد العلم التي يحاول كبارهم أن يلقوها في أذهانهم ، لا تقبلها نفوسهم ولا تلج قلوبهم . وكذلك الرجل الذي لا يؤمن بالآخرة ، يرى الايمان بالله واتباع أوامره في الدنيا عبثاً لا طائل تحته . فلا فائدة في نظره لطاعة الله ولا ضرر لمعصيته . فكيف يرجى منه بعد ذلك أن يزعج نفسه ويكرهها على طاعة اوامر الله التي أنزلها على رسله ، وفي كتبه ؟ وهو ولو آمن بالله ، فلا معنى لايمانه ، لأنه لن يطيع الله ولن يسير في حياته وفقاً لمرضاته تعالى .

ولا يقف الامر عند هذا الحد فحسب ، فان إنكار الانسان للحياة الآخرة أو إقراره بها له تأثير بعيد فيصل في حياته ، فان الذي فطر عليه الانسان ــ كما بينا لك من قبل ــ ألا يصبو الى عمل أو يعرض

عنه الا على قدر ما يرى فيه لنفسه من فائدة او ضرر . فأنّى للذي لا يعدو نظره فائدة هذه العاجلةوضررها ، ان ينشط لعمل صالح لايرجو منه فائدة في هذه الدنيا ، او يجتنب عملا سيئاً لا يخاف منه على نفسه ضرراً في هذه الدنيا ؟ أما الذي ينفذ نظره الى نتائج الاعمال ولا يقف عند ظواهرها ، فلا يرى نفع هذه العاجلة أو ضررها الا شيئاً عارضاً ، فيؤثر الحق على الباطل والخير على الشر ، نظراً الى فائدة الآخرة أو مضرتها الأبدية ، ولو كان الخير يرجع على نفسه بأفدح ضرر والسيئة بأعظم منفعة في هذه الدنيا . فانظر الى ما بين هذين الرجلين من الفرق العظيم والبون الشاسع ... فالخير في نظر الأول ما يحصل نفعه في هذه الحياة الفانية ، كأن ينالَ ثروةً ، أو ارضاً ، أو سمعة وحسن أحدوثة بين الناس ، أو لذة أو مسرة أو شيئاً مما يروي غليل شهوة من شهوات نفسه ، والشر عنده ما ينتج ، او يخشى أن ينتج ، شيئاً مكروهاً في هذه الدنيا ، كالنقص فيالأموال والأنفس والثمرات ، أو انحرافالصحة ، أو سوء الأحدوثة بين الناس، أو عقوبة الحكومة ، أو شيء من قبيل الحزن أو الضجر . بينما الخير في نظر الرجل الثاني ما يرضي الله ، والشر ما يسخطه ، وهو يرىان الخير خير في كل حال ، وإن لم ينفعه في هذه الحياة الدنيا وابتلاه بكل ضرر فيها ، ويستيقن ان الله سيعطيه نفعاً أبديا عنده في الآخرة، وأن الشر شر في كل حال ، وان لم يذق أو لم يخف ان يذوق وباله في هذه الحياة الدنيا ، ووجد فيه المنفعة كل المنفعة ، ويعلم علم اليقين انه إن فاته العقاب على اعماله السيئة في هذه الدنيا ، فلا مفر له منه في الآخرة .

وبموجب هذين الاتجاهين المختلفين ، يختار الانسان أحدطريقين مختلفين في حياته . فالذي لا يؤمن بالآخرة ، لا يمكن ان يخطو ولو

خطوة واحدة في طريق الاسلام ، فاذا قال له الاسلام « أدّ الى الفقراء والمساكين زكاة ما عندك من الأموال تبتغي بها وجه ربك » ، قال : إن الزكاة تنقص من أموالي ، فسآخذ الربا عليها بدلاً من أداء زكاتها ، وسأرفع أمر الذين يستقرضونني الى المحكمة ، وعندما تقضي لي عليهم اصادر ما يملكون من البيوت وما فيها من الاثاث . . . واذا قال له الاسلام « اصدق واجتنب قول الزور ولو كان في الصدق أفدح الضرر وفي الكذب أعظم المنفعة » ، قال: ولم أصدق إذا كان يضرني، ولمَ أجتنب قول الزور اذا كان ينفعني ولا اخاف منه سوء الاحدوثة بين الناس؟ . . يمر بطريق غير مأهول ويجد فيه شيئاً ثميناً، فيقول له الاسلام « أن ليس ذلك من مالك فلا تأخذه » . ولكنه يقول : لماذا أترك شيئاً جاءني عفواً من غير كد ولا بذل ثمن ؟ وليس في هذا الطريق من يراني حتى يرفع أمري الى الشرطة ، أو يشهد عليّ في المحكمة ، أو يشوه سمعتني بين الناس ، فماذا عليّ اذا انتفعت من هذا المال واستملته في مصلحتي ؟ . . . ويودع عنده رجل ماله ويأتمنه عليه ثم يموت ، فيقول له الاسلام « لا تخن ما عندك من مال صاحبك ، ورُدَّ أمانته الى اهله » ، ولكنه يقول : لماذا ؟ هل عند احد شهادة بأن الميت أودع عندي ماله ؟ أم هل يعلم ورثته ذلك ؟ فاذا أمكنني أن آكل هذا المال بكل سهولة ، ولا أخاف على نفسي محاكمة ولا سوء سمعة ، فما أسفهني إن رددته الى أهله ! . وجملة القول : إن الاسلام يرشده الى طريق مستقيم في كل خطوة من خطوات حياته ، وهو يعارضه ، ولا يختار الا طريقاً موافقاً لهواه ، لأن قيمة كل شيء في الاسلام تبع للنتائج الابدية في الآخرة . ولكن نظره لا يعدو النتائج الحاصلة في هذه الحياة الدنيا . ومن هنا تعرف لماذا لا يمكن للانسان ان يكون مسلماً بدون الايمان بالآخرة ، بل الحق أن إنكار المرء للحياة الآخرة ،

يحطه من درجة الانسانية الى الدرك الاسفل من البهيمية ، بله أن يبقى مسلماً .

صدق عقيدة الآخرة :

قد عرفت عقيدة الآخرة ، وحاجة الانسان إليها ، وفائدتها له . وها نحن أولاء نبين لك الآن على وجه الايجاز ، ان العقيدة التي بينها الرسول صلى الله عليه وسلم عن الآخرة ، هي الحق بموجب العقل أيضاً . وهذه العقيدة ، وان كان إيماننا بها اعتماداً على رسول الله ، وتصديقاً بما جاء به ، ولا نعول في بابها على العقل ، ولكننا اذا عملنا فكرنا قليلا ، علمنا انها أقرب عقيدة للعقل في باب الآخرة .

إن في الدنيا ثلاث عقائد عن الآخرة وحياتها :

١ ـ تقول طائفة : إن هي الا حياتنا الدنيا نحيا ونموت وما لنا من حياة بعد الموت ، وهذه عقيدة الملحدين ، الذين يدعون أنهم علماء الطبيعيات Scienes

٢ ـ وتقول طائفة أخرى إن الانسان يتتابع عليه الموت والحياة مرة بعد مرة في نفس هذه الدنيا لينال جزاء أعماله . فان كانت أعماله في حياته الاولى سيئة ، يأتي في حياته التالية حيواناً من الحيوانات، كالقرد أو الكلب أو الهر، أو بصورة شجرة من الأشجار، أو كرجل من أحط الناس . وإن كانت أعماله صالحة ، ارتفعت به المنزلة وعلت به الدرجة . ويقول بهذه العقيدة بعض من لم تنضج فكرتهم الدينية .

٣ ـ وتؤمن طائفة ثالثة باليوم الآخر ، والحشر ، والحضور بين يدي الله ، ومجازاته للناس على أعمالهم . فهذه هي العقيدة التي دعا اليها الانبياء عليهم السلام جميعاً .

ولننظر الآن قليلا في هذه العقائد الثلاث :

فالذي يقول به رجال الطائفة الاولى ، ويعتمدون عليه في إثبات عقيدتهم ، انهم ما رأوا انساناً أوتي الحياة بعد موته ، بل انما يأكله التراب وتفنيه الارض بعد الوفاة ... أفهذه حجة من الحجج ؟ إن غاية ما يمكنك أن تقوله اذا كنت لم تر أحداً أوتي الحياة بعد موته ، انك لا تعرف ماذا يكون بعد الموت . أما دعواك أنك تعرف ان لا حياة بعد الموت ، فلا دليل عندك عليها . فرجل من أهل القرية لم يشاهد الطيارة بعينه ، يمكنه القول أنه لا يدري ما هي الطيارة ، ولكنه اذا قال : إنه يعرف أن ليس في هذه الدنيا شيء يعرف بالطيارة ، أحمقه الجميع ، فانه ليس معنى عدم رؤية شيء أنه لا وجود له . بل لو أن أهل الارض قاطبة أجمعوا على أنهم لم يروا شيئاً مسمى ، فلا تجوز لهم الدعوى أن لا وجود لذلك الشيء ، أو لا يمكن أن يكون له وجود .

أما العقيدة الثانية ، فتقول : إن الانسان هو انسان في حياته الحاضرة ، لأنه عمل الصالحات عندما كان حيواناً في حياته الاولى ، وأن الحيوان هو حيوان في حياته الحاضرة . لأنه عمل السيئات عندما كان انساناً في حياته الاولى . وبكلمة أخرى إن كون الانسان إنساناً ، والحيوان حيواناً ، والشجر شجراً ، إنما هو نتيجة لأعماله الصالحة أو السيئة الماضية في حياته الاولى . وهكذا يتتابع عليه الموت والحياة في هذه الدنيا .

والسؤال الذي ينشأ بهذا الصدد ، هو « أي شيء كان في هذه الدنيا في بدء الأمر ؟ » فان قلت « الانسان » فلا بد أن يكون حيواناً أو شجراً قبل ذلك ، والا فعلى أي عمل صالح انعم عليه قالب الانسان هذا ؟ وان قلت « الحيوان أو الشجر » ، فلا بد ان يكون انساناً

قبل ذلك . والا فما هي الاعمال السيئة التي اقترفها وأوتي قالب الحيوان أو الشجر جزاءً عليها ؟ فالحق أن القائلين بهذه العقيدة لا يمكنهم أن يقرروا بدء الخلق في هذا العالم من جيل معين معلوم ، فان كل جيل من أجياله، لا بد أن يكون سبقه جيل آخر، حتى يكون الجيل الآخر نتيجة لأعمال الجيل السابق . وهذا مما يخالف العقل ولا يوافقه .

خذ الآن العقيدة الثالثة ، فأول ما جاء في هذه العقيدة ، ان الله تعالى قدر يوماً لتقوم فيه الساعة على هذا الكون ، فتبدل الارض غير الارض والسماوات . فهذا مما لا يرتاب فيه عاقل ، وعلى قدر ما يزداد المرء تفكرا في معمل الكون هذا ، يزداد معرفة بأنه لا بقاء له . فان جميع القوى والأدوات التي فيه ، محدودة لا بد لها من الفناء يوما من الايام ، ولاجل ذلك فقد أجمع علماء العلوم الطبيعية على أن هذه الشمس ستبرد يوماً من الايام وتفقد نورها ، وأن هذه النجوم والسيارات ستتصادم فيما بينها وتنقرض هذه الدنيا .

ثم جاء في هذه العقيدة أن الانسان سيؤتى الحياة الاخرى ، أفهذا من المستحيل ؟ فان كان ذلك كذلك ، فكيف حصلت للانسان هذه الحياة الدنيا ؟ . . لا ريب أن الله الذي خلق الانسان في هذه الدنيا ، قادر على أن يخلقه مرة أخرى بعد موته .

ثم جاء في هذه العقيدة ان الانسان تسجل عليه أعماله الحسنة أو السيئة وستعرض عليه في كتاب يلقاه منشوراً يوم القيامة . فهذا مما نجد اليوم ما يثبته :

كان الناس يظنون في الزمن الماضي ان الصوت الذي يخرج من افواهنا ، يندمج في الهواء ويضمحل فيه بعدما يحدث فيه شيئاً

من التموج ، ولكن قد عرف أخيراً ان لكل صوت أثراً يتركه فيما حوله من الاشياء ، ومن الممكن ضبطه وإحياؤه فيما بعد ، وعلى هذا المبدأ قد أوجد الانسان الحاكي (الغراموفون) ، مما يدل على أن كل حركة تصدر عنا في هذه الدنيا ، تسجل في أشياء تصدمها بوجه من الوجوه . واذا علمنا هذا فقد علمنا علم اليقين ، ان جميع أعمالنا في هذه الدنيا مسجلة مدونة ، ويمكن احياؤها وإحضارها مرة أخرى .

والأمر الرابع الذي جاء في هذه العقيدة ، ان الله تعالى يجازي عباده على أعمالهم بالحق يوم يحشرهم : ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . من ذا الذي يمكن أن يقول إن هذا مستحيل ؟ وأي شيء فيه يخالف العقل ؟ بل العقل نفسه يقتضي أن يحشر الله عباده يوماً ويحكم بينهم بالحق . ذلك بأننا نشاهد أن الرجل يعمل صالحاً ولا ينال ثوابه في هذه الدنيا ، أو يعمل السوء ولا يلقى عقابه في هذه الدنيا . بل نحن نشاهد الصالحين قد يصيبهم الضرر ، والاشرار قد يعيشون عيشة الرفاهة ويرفلون في النعم ، فيتطلب العقل بنفسه في مثل هذه الحوادث أن يلقى الرجل جزاءه كاملا في كلتا الحالين : على أعماله الصالحة أو السيئة .

والأمر الأخير في هذه العقيدة وجود الجنة والنار . فما وجودهما بمستحيل . فاذا كان الله تعالى قادراً على أن يخلق الشمس والقمر والمريخ والارض ، فكيف يعجز عن خلق الجنة والنار ؟ والله تعالى عندما يحشر الناس في محكمته ينبغي أن يكون للذين يثيبهم مقام عزة وكرامة ونعيم ومسرة ، وللذين يعذبهم مقام ذل وعذاب وحزن وألم .

تفكر في هذه الامور كلها ، تعرف من دون شك أن هذه العقيدة هي أقرب عقيدة للعقل ، من بين جميع العقائد ، التي توجد اليوم في

الدنيا ، عن حياة الانسان بعد موته ، وليس فيها شيء يخالف العقل أو يكون من المستحيل وجوده .

ثم إذا كان هذا الأمر قد بلغنا على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ـ وهو في صدقه وأمانته وعفافه حيث قد عرفت ـ وفيه الخير كل الخير لأنفسنا ، فان العقل يقتضي أن نؤمن به ، ولا يقتضي أن نرتاب فيه من غير حجة ولا برهان .

الكلمة الطيبة :

هذه هي العقائد الخمس (١) التي بني عليها الاسلام ، وقد لخصت في كلمة واحدة هي « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . فاذا قلت « لا إله إلا الله » ، أقررت بعبوديتك لاله واحد دون سائر الآلهةالباطلة. وكذلك اذا قلت « محمد رسول الله » صدقت بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول من الله الى عباده ، والذي يستلزمه تصديقك بالرسالة المحمدية ، أن تؤمن بكل ما بينه محمد صلى الله عليه وسلم ، عن وجود الله تعالى ، وصفاته ، وملائكته ، وكتبه ، وأنبيائه واليوم الآخر ، وتسلك الطريق الذي هدى اليه لعبادة الله واتباع أحكامه وأوامره .

(١) قد ذكرت في هذا المقام خمسة أمور يجب الايمان بها وهي مأخوذة من قوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون » الآية (البقرة : ٢٨٥) ومن قوله تعالى « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » (النساء : ١٣٦) . ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكر « القدر خيره وشره » من الامور التي يجب الايمان بها أيضا ، ولكن الحقيقة ان ليس الايمان بالقدر ، الا جزءاً من أجزاء الايمان بالله ، وعلى هذا قد ذكره القرآن في ضمن بيان التوحيد ، ولذلك اكتفيت أن أذكره في ضمن شرحي لكلمة : لا اله الا الله . وكذلك جاء ذكرالجنة والنار والصراط والميزان في بعض الاحاديث مستقلا عن الامور الاخرى التي يجب الايمان بها ، والواقع انها أجزاء للايمان بالآخرة .

الفصل الخامس

العبادات

معنى العبادة ــ الصلاة ــ الصوم ــ الزكاة ــ الحج ــ حماية الاسلام .

قد بينا في الفصل السابق أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نؤمن :

١ ــ بالله تعالى وحده لا شريك له .

٢ ــ وبملائكته .

٣ ــ وبكتبه ، وبالقرآن على الأخص .

٤ ــ وبأنبيائه ، وبخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم على الأخص .

٥ ــ وبالحياة الآخرة .

هذا هو أساس الاسلام .

إنك إذا آمنت بهذه الامور الخمسة ، فقد دخلت في زمرة المسلمين وأصبحت فرداً منهم ، ولكنك لم تستكمل إسلامك بعد ، فان المرء لا يستكمل إسلامه ، إلا اذا أطاع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من الاحكام والأوامر من عند الله تعالى . . فان إيمانك بشيء يستلزمك أن تطيعه . وهذه الطاعة بعد الايمان هي الاسلام . قد أقررتَ أن

الله وحده هو إلهك ، فمعنى ذلك أنه سيدك وأنت عبده ، وأنه مالكك وآمرك وناهيك ، وأنت المطيع لأمره ونهيه ، والقائم عند حدوده . فاذا عصيته بعد ذلك ، فقد اقترفت جريمة الخروج على سيدك بموجب إقرارك أنت . ثم انك قد أقررت بأن القرآن كتاب الله ، فمعنى ذلك ، أنك اعترفت بأن كل ما في هذا الكتاب هو الحق من عند الله وذلك ما يوجب عليك أن تصدق به وتطيعه في كل أمر من أوامره ونهي من نواهيه . ثم أقررت أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، فمعنى ذلك أنك أقررت بأن كل ما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم أو ينهى عنه، إنما هو من عند الله تعالى ، وذلك ما يوجب عليك طاعته صلى الله عليه وسلم . لذا فلن تستكمل اسلامك الا اذا جاء عملك وفقاً لايمانك ، والا فعلى قدر ما يكون الفرق بين ايمانك وعملك، يكون ايمانك ناقصاً غير كامل .

وتعال نتبين ذلك الطريق الذي أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، أن نسلكه لقضاء حياتنا وفقا لمرضاة الله تعالى . وأول شيء في هذا الباب هو « العبادات المكتوبة » .

معنى العبادة :

العبادة : هي العبودية معنىً وحقيقةً . أنت عبد والله معبودك ، فكل ما يأتي به العبد في طاعة معبوده هو العبادة . فمثلا اذا كلمت الناس واجتنبت الكذب والغيبة والفحش والبذاءة في كلامك معهم ، لأن الله قد نهاك أن تأتي بهذه الأمور ، وتحريت الصدق والعدل والمعروف والخير في كلامك لهم ، لأن الله يحب هذه الامور ، فكلامك هذا عبادة الله تعالى ولو كان كله عن شؤونك الدنيوية . وكذلك اذا عاملت الناس ومشيت في الأسواق مشترياً وبائعاً ، وعاشرت أباك

وأمك وإخوتك وأهلك ، وجالست أصدقاءك وذوي قرباك ، مراعياً في كل ذلك أحكام ربك وقوانينه ، وأديت الى كل ذي حق حقه ، لأن الله قد أمرك بأدائه اليه ، وما بخست أحداً شيئاً من حقه ، لأن الله نهاك عن ذلك ، فقد قضيت حياتك هذه كلها في عبادة الله تعالى . وكذلك اذا أحسنت الى مسكين ، أو نصرت مظلوماً ، أو أطعمت جائعاً، أو واسيت مريضاً ، وجعلت نصب عينيك في كل هذا وجه الله تعالى دون طلب منفعة أو عزة أو سمعة ذاتية ، عدّ كل ذلك من عبادتك لله تعالى . وكذلك اذا تعاطيت التجارة أو الصناعة أو اشتغلت بالخدمة وأديت ماعليك من الواجب بكل أمانة وصدق اتقاءً لله تعالى، ثم كسبت الحلال وتجنبت الحرام ، كان كسبك هذا وسعيك في سبيله عبادة لله تعالى ، مع أنك ما قمت بكل ذلك الا لتكسب الرزق لنفسك .

وجملة القول ، إن خوفك لله تعالى في كل شأن من شؤون حياتك، وفي كل حين من أحيانك ، وجعلك مرضاة الله نصب عينيك ، واتباعك لقانونه ، ورفضك لكل منفعة تنالها أو يمكن أن تنالها بمعصيته ، وصبرك على كل مضرة تصيبك أو يمكن أن تصيبك بطاعته ، ذلك كله من عبادتك لله تعالى ، وحياتك بهذا الطريق من أولها الى آخرها عبادة ، وليس الأكل والشرب والنوم واليقظة والقعود والقيام والمشي والكلام والسكوت الا من العبادة في حياة كهذه .

هذه هي العبادة وهذا هو معناها الحقيقي . وما غرض الاسلام الا أن يجعل الانسان عبداً يعبد الله مثل هذه العبادة في كل حين من أحيانه ، وقد افترض عليه لهـذا الغرض مجموعة من العبـادات تهيئه لهذه العبادة الكبيرة ، فكأنه ليست هذه العبادات المفروضة،

إلا بمثابة التربية للعبادة الكبيرة المنشودة . فكل من يتلقى هذه التربية على احسن وجه ، يؤدي العبادة الحقيقية على الوجه المراد . ومن أجل ذلك جعلت هذه العبادات عين الفريضة في الاسلام ، وقيل إنها أركان الدين ، أي دعائمه التي يقوم عليها بناؤه . فكما ان كل بناء لا يقوم إلا على مجموعة من الدعائم ، كذلك لايقوم بناء الحياة الاسلامية الا على هذه الدعائم . فمن هدمها ، فقد هدم بناء الاسلام نفسه .

الصلاة :

الركن الأول من أركان الاسلام الصلاة . وما الصلاة في حقيقة الأمر إلا أن تعيد بلسانك وأعمالك ، خمس مرات في الليل والنهار ، ذكر ماقد آمنت به . فاذا استيقظت صباحاً ، مثلت بين يدي ربك طاهراً نظيفاً قبل أن تشتغل بشيء آخر ، ثم أقررت بين يديه بعبوديتك له قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، واستعنته واستهديته . وجددت مابينك وبينه من ميثاق الطاعة والعبودية ، وأعدت مرة بعد مرة أمنيتك في نيل رضاه والابتعاد عن غضبه ، وأعدت درس كتابه ، وشهدت بصدقِ رسوله ، وذكرت يوماً ترجع فيه إلى محكمته لتسأل فيها عن أعمالك ، ثم تنال عليها الجزاء الذي تستحقه . . . بهذا يبتدىء نهارك . ثم اذا اشتغلت ساعات بأعمالك ، ناداك المؤذن أن هلم الى ذكر الله ، وأعِدْ درسك مرة أخرى ، لئلا تنساه وتكون من الغافلين ، فنهضت من مكانك ، وبعد أن جددت الايمان ، رجعت الى الدنيا واشتغلت بشؤونها ، ثم ناداك المؤذن مرة ثالثة لصلاة العصر بعد ساعات ، ثم اذا أدبر النهار وأقبل الليل ، بدأتَ ليلك بما كنت بدأت به نهارك ، من ذكر الله تعالى وعبادته ، كيلا تنسى درسك في الليل . ثم اذا جاء وقت النوم بعد قليل ،

صليت صلاة العشاء ، وذكرت ربك للمرة الأخيرة ، فانه وقت الهدوء والطمأنينة ، ولك أن تتمتع فيه من الهدوء والسكينة ، بما عسى أن يكون قد فاتك في ضوضاء النهار وغوغاء المعاش .

إن الصلاة هي التي لا تنفك تدعم أساس إسلامك خمس مرات في كل يوم ، وتعدك للعبادة الواسعة الحقيقية التي قد ذكرناها لك آنفاً . وهي التي تذكرك دائماً بالعقائد التي تنحصر فيها طهارة نفسك ، وارتقاء روحك ، وصلاح أخلاقك وأعمالك . أفرأيت لماذا تتبع في وضوئك ذلك الطريق الخاص الذي علمه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولماذا تقرأ في صلاتك بتلك الكلمات التي علمها الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ أليس ذلك لأنك ترى طاعة الرسول واجبة على نفسك ؟ ولماذا لا تخطىء عمداً فيما تقرأ من القرآن في صلاتك ؟ أليس ذلك لأنك موقن بأن القرآن كتاب الله ؟ ومن ذا الذي تخشاه اذا قرأت في صلاتك بكلمات غير الكلمات التي علمها الرسول أو لم تقرأ بها أصلاً ، وما هناك من أحد من البشر يسمعك تقرأ في صلاتك بشيء أو لا تقرأ ؟ أليس ذلك لمجرد علمك أن الله يسمعك ، ولا يخفى عليه أمرك عندما تقرأ خفية في نفسك ؟ وما الذي يوقظك من النوم ويدعوك الى الصلاة حيث لايراك احد ؟ أفهو غير اعتقادك أن الله يراك ؟ وما الذي يدعوك الى أن تذر ماتكون فيه من شغلك وتسعى الى الصلاة اذا جاء وقتها ؟ أفليس هو شعورك بأن الله هو الذي فرض عليك هذه الصلاة ؟ وما الذي يجبرك على الصلاة وقت الصبح شتاءً ، ووقت الظهيرة صيفاً ، ووقت اللعب والطرب مساء

كل يوم؟ أفهذا شيء غيرشعوركبالواجب؟ ثم لماذا تخاف إذا لم تصل ، أو إذا أخطأت في صلاتك عمداً ؟ أفلذلك سبب غير أنك تخاف الله ، وتعلم أنك سترجع اليـــه وتقوم بين يديه يوم القيامة ؟ قل لي بالله بعد كل ذلك : هل يمكن أن تكون في الدنيا تربية خير من الصلاةتجعل المرء مسلماً حقاً ؟ وهل يمكن أن تكون للانسان تربية خير من أن يجدد ذكر الله تعـالى وخشيته ، واليقين بكونـه خبيراً بصيراً ، والاعتقاد بالحضور في محكمته يوم القيامة ، ويتبع الرسول عدة مرات في ليله ونهاره ، ويتدرب على القيام بالواجب بعد كل ساعات من يومه وليله ؟ ان هذاالانسان يرجى منه عند ما يشتغل بأمور معاشه بعد خروجه من المسجد ان يخاف الله ، ويتبع قانونه ، ويتذكر عند كل خطيئة يزينها الشيطان في قلبـه ان الله ناظره ولا يخفى عليه امر من أموره . أما اذا كان المرء لا يخاف الله ولا يكف يده عن معصيته ومخالفة أحكامه حتى بعد هـذه التربية العالية ، فما ذلك لسقم في أصل التربية ، وإنما ذلك لما في نفس هذا الانسان وطبيعته من الفساد والخبث والشر .

ثم إن الله قد اكدتأكيداً شديداً ، أن يؤدي المسلمون فريضة الصلاة جماعة ، وافترض عليهم أن يؤدوا صلاة الجمعة في كل أسبوع بالجماعة على الوجه الخاص . فالصلاة جماعة ، تنشيء الاتحاد والمحبة والاخاء بين المسلمين ، وتجعل منهم كتلة متراصة ، فانهم عندما يجتمعون ويقنتون لربهم ويسجدون له ويركعون معاً تأتلف قلوبهم ، وينشأ فيهم الشعور بأنهم اخوة فيما بينهم . ثم ان الصلاة

في جماعة تدربهم على طاعة أمير ينتخبونه من بين انفسهم ، وتربيهم على النظام والانضباط والمحافظة على الأوقات ، وتنشيء فيهم المواساة والتراحم والمساواة والائتلاف ، فتراهم جميعاً غنيهم وفقيرَهم وكبيرهم وصغيرهم ، وأعلاهم وأدناهم ، يقومون جنبا إلى جنب ، فلا شريف فيهم ولا دنيء ، ولا رفيع ولا وضيع .

هذا نزر يسير مما تعود به الصلاة على انفسكم ، لاعلى ربكم ، من المنافع . والله تعالى لم يفترض عليكم الصلاة إلا لصالحكم انتم . وما غضبه عندما لا تؤدونها لأنكم قد أصبتموه بشيء من الضرر ، بل لأنكم ظلمتم انفسكم . انظروا اية قوة عظيمة ينعم بها الله عليكم بواسطة الصلاة . ثم انتم معرضون ؟ فيا للخجل ! تقرون بألسنتكم بألوهية الاله وطاعة الرسول ومسؤولية الآخرة ، ثم لاتؤدون أكبر واجب قد فرضه عليكم ربكم ؟ إن أمركم احد اثنين : إما أنكم تنكرون أن الصلاة فريضة من الله ، أو تقرون بكونها فريضة من الله ولكنكم تعرضون عن أدائها . فإن كنتم تنكرون انها فريضة ، فانكم تكذبون بالقرآن ، وتكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما دعواكم بالايمان بهما إلا دعوى كاذبة . وان كنتم لا تؤدونها مع إقراركم بكونها فريضة من الله ، فكفى به أن يُذهب عن قلوب الناس الثقة بأمانتكم : تخونون فريضة الله عليكم ، فكيف يرجى منكم الا تخونوا حقوق الناس وامانتهم ؟ !

الصوم :

والركن الثاني من اركان الاسلام الصوم . وما أدراك ما هو

الصوم ؟ إن الدرس الذي تذكر به الصلاة خمس مرات في الليل والنهار ، يذكر به الصوم في كل حين من الاحيان مدة شهر كامل من السنة . فاذا جاء رمضان ، انقطعتَ عن الأكل والشرب من الفجر الى المساء . وبينما أنت تأكل وتشرب ، إذا بالصبح يبلج ، واذا بك تسمع الأذان فتمسك يدك عن طعامك وشرابك دفعة واحدة ، ومهما جاءك بعدئذ من طعام شهي وشراب هنيء ، واشتد بك الجوع والعطش ، فانك لا تقربهما حتى غروب الشمس . ولا يقف الأمر عند امتناعك عن الطعام والشراب أمام أنظار الناس ، بل لا تقربهما حتى في وحدتك ، التي لا يراك فيها أحد . ففي أثناء هذه الساعات — من الفجر الى غروب الشمس — ، لا تتجرَّع جرعة من الماء ، ولا تبتلع لقمة من الطعام . ولكن هذا الامتناع عن الطعام والشراب لا يمتد الا الى حين محدد؛ فاذا غربت الشمس وسمعت أذان المغرب ، أسرعت الى الافطار ، وأقمت الليل تأكل وتشرب ما تشاء هنيئاً مريئاً . تفكر ! ما هذا الذي تصنع ؟ لاشك أن من ورائه خشية الله تعالى واليقين بكونه خبيراً بصيراً ، والايمان باليوم الآخر والحضورَ في محكمة الله ، والطاعة الشديدة للقرآن والرسول ، والشعورَ القوي بالواجب ، والمران على الصبر والتجلد ، والقدرة على التغلب على الشهوات النفسانية . يأتيك شهر رمضان كل عام ، ليعني بتربيتك ثلاثين يوماً كاملاً على هذه الصفات والأخلاق العالية ، حتى تكون مسلماً كاملاً حقاً ، وتجعلك هذه الصفات والأخلاق قابلاً للقيام بالعبادة الحقيقية ، التي يجب أن يؤديها المسلم في كل لحظة من لحظات حياته .

ثم إن الله تعالى لم يفترض الصيام على المسلمين جميعاً إلا في شهر واحد بعينه ، ليصوموا جميعاً لا متفرقين . وفي ذلك أيضاً كثير من المنافع ، فاذا جاء شهر رمضان ، أظل المجتمع المسلم كلّه جو من الطهارة والنظافة والايمان وخشية الله وطاعة أحكامه ودماثة الأخلاق وحسن الأعمال ، وكسدت سوق المنكرات ، وعم انتشار الخيرات والحسنات ، وبدأ الصالحون من عباد الله يتعاونون فيما بينهم على أعمال البر والاحسان ، وبدأ يعتري الأشرار الخجل من اقتراف المنكرات ، ونشأت في الأغنياء عاطفة المساعدة لاخوانهم الفقراء والمساكين ، وبدؤوا ينفقون أموالهم في سبيل الله ، وأصبح المسلمون جميعاً في حالة متماثلة ، وكل ذلك يكوّن فيهم الشعورالعام بأنهم جميعاً جماعة واحدة . وتلك وسيلة ناجعة لتنشأ فيهم عاطفة التحابّ والاخاء والمواساة والتعاون والوحدة .

ولا ترجع هذه المنافع كلها إلا على أنفسنا ، وما لله من فائدة في إجاعتنا ، وهو لم يفترض علينا صيام شهر رمضان إلا لصالحنا ، فالذين لا يؤدون هذه الفريضة بغير ما سبب ، إنما يظلمون أنفسهم . وأكثر منهم وقاحة وأشنع منهم طريقة ، أولئك الذين يأكلون ويشربون في شهر رمضان علنا بلا احتشام ولا خجل ، كأنهم يعلنون أن لسنا من جماعة المسلمين ولا نحفل بأحكام دينهم ، بل نحن من الذين لا يشق عليهم الخروج من جماعة المسلمين ؛ ولا يأخذهم الخجل من الخروج على خالقهم ورازقهم ، ولا يتحرجون عن مخالفة القانون الذي أوجبه عليهم زعيمهم الأكبر صلى الله عليه وسلم ، فكيف يرجى فيهم شيء من الوفاء والأمانة والأخلاق والشعور بالواجب والمحافظة على القانون ؟!

الزكاة :

والركن الثالث من أركان الاسلام « الزكاة » . والله تعالى قد فرض على كل فرد من أفراد المسلمين اذا زاد ماله عن النصاب وحال عليــه الحول (العام) الكامل ، أن يؤدي زكاته إلى رجل من الفقراء أو المساكين أو أبناء السبيل أو المهتدين الى الاسلام أو الغارمين أو في سبيل من سبل الله .

فهكذا جعل الله تعالى في أموال الأغنياء من المؤمنين حقاً معلوماً للفقراء قدره ٢/١٢٪ على اختلاف أنواع الأموال ، ومن تطوع فوق ذلك ، فهو خير له وأعظم أجراً .

وهذا الحق أو النصيب المعلوم ، لا ينال الله تعالى ، وما هو بحاجة إليه . ولكنه يقول لعباده : إنكم إذا تصدقتم بشيء عــلى أخيكم المسكين لأجلي وابتغاءً لوجهي ، بطيب خاطر وانشراح صدر منكم ، فقد تصدقتم به عليَّ ، ولكن على ألاّ تمنوا عليه ولا تؤذوه ولا تحقروه ، ولا ترجوا منه جزاءً ولا شكوراً ، ولا تقوموا بذلك ليعلم الناس صدقاتكم ويتذاكروها ويشيروا إليكم بالبنان . فان أديتم الى الفقراء والمساكين والمحتاجين ، ما قد جعلت لهم من نصيب في أموالــكم ، مطهرين قلوبكم من مثل هذه الافكار الباطلــة والظنون السافلة ، أعطيتكم من أموالي العظيمة نصيباً لا ينفد ولا يبلى .

إن الله قد افترض علينا هذه الزكاة ، كما افترض علينا الصلاة والصيام ، وهي ركن مهم من أركان الاسلام ، لانها تحلي المسلمين بأوصاف التضحية والايثار لوجه الله تعالى ، وتزيل عن قلوبــهم

الأثرة وحب الذات وضيق الصدر وعبودية المال وما اليها من الصفات الدنيئة الاخرى . لا حاجة للاسلام الى البخيل الشحيح ، الذي يعبد المال ويتكالب عليه فانه لا ينفعه في قليل ولا كثير . ولا يهتدي الى الاسلام ويتبع طريقه المستقيم ويسلكه سلوكاً مستمراً إلا من اذا جاءه أمر من أوامر الله ضحى في سبيله بماله الذي اكتسبه بعرق جبينه بدون أدنى غرض ذاتي . والزكاة تروض المسلم على هذه التضحية ، وتجعله قابلاً لئلا يتثاقل إلى أمواله ، ولا يجعل يده مغلولة إلى عنقه إذا بلغ الامر مبلغ الجد ، واقتضى بذل المال ، بل ينفقها بكل انشراح وطيب خاطر منه .

ومن فوائد الزكاة في الدنيا أن يتناصر المسلمون ويتكافلوا فيما بينهم ، حتى لا يبقى فيهم عارٍ ولا جائعٌ ولا مهين ، ويكفل غنيهم فقيرهم ، ويعاف فقيرهم أن يبسط يده إلى الغني بالاستمداد ، ولا ينفق أحد أمواله في البذخ والترف ، ويعلم أن في أمواله حقاً لليتامى والأيامى والفقراء والمساكين من أبناء أمته ، وأن فيها حقاً للذين يقدرون على العمل ولكن لا يجدون اليه سبيلا لما يعوزهم من المال ، وأن فيها حقاً للأطفال الذين فطروا على الذكاء والفطنة ولكن لا يقدرون على تحصيل العلم بسبب فقرهم، وأن فيها حقاً للعجزة الذين لم يعودوا قادرين على العمل . فكل غني لا يعترف في ثروته بهذه الحقوق ، ظالم . وأي ظلم أشنع من أن يكون عندك من الثروة الضخمة وأسباب الترف والرفاه مالا يكاد يأتي تحت الحصر ، وتترفل في قصورك الشامخة ، وتتنعم بركوب سياراتك الفاخرة ، وحولك ألوف من

إخوانك الفقراء ، الذين لا يكادون يجدون سبيلا إلى كسرة من الخبز ، وألوف من القادرين على العمل ، يهيمون على وجوههم عاطلين . إن الاسلام يبغض مثل هذا الرجل ويحارب عاطفة أثرته . وما هذه الأثرة إلا من شيمة الكفار ، الذين تعلمهم مدنيتهم أن يدخروا عندهم كل ما تصل اليه أيديهم من الثروة ويرابوا بها . ويجلبوا منها الى أنفسهم كل ما في أيدي الناس الآخرين . أما المسلمون ، فيعلمهم دينهم أنه إذا وهب الله لكم من الرزق ما زاد عن حاجتكم ، فلا تكنزوه ، وأعطوه إخوانكم الذين يفقدونه ، ليسدوا حاجاتهم ويعودوا قادرين على كسب معيشتهم ، كما تكسبون معيشتكم أنتم .

الحج :

والركن الرابع من أركان الاسلام « الحج » ، وما فرضه الاسلام إلا على الذين يستطيعون السبيل إلى مكة من أغنياء المسلمين ، وما فرضه عليهم إلا مرة في عمرهم .

بنى خليل الله إبراهيم عليه السلام ، بيتاً صغيراً لعبادة الله قبل بضعة آلاف من السنين ، حيث تقع اليوم مكة المكرمة ، فتقبل الله تعالى سعيه ، وشكر حبه واخلاصه ، حتى نسب هذا البيت إلى نفسه ، وقال : من أراد أن يعبدني فعليه أن يعبدني مولياً وجهه الى هذا البيت ، ومن استطاع السبيل الى هذا البيت ، فعليه أن يزوره مرة في عمره على الاقل ، ليطوف به بمثل الحب الذي كان يطوفه به عبدي وخليلي ابراهيم عليه الصلاة والسلام . وكذلك أمر الله تعالى أن اذا نويتم الحج ، وخرجتم من بيوتكم مريدين هذا البيت الحرام ،

فطهروا قلوبكم ، واكبحوا شهواتكم النفسية ، واجتنبوا الفسوق والجدال وسفك الدماء والفحش من الكلام ، وائتوه بما يجب عليكم أن تكونوا عليه عندما تمثلون بين يدي ربكم من الأدب والاحترام والعجز والخشوع ، واعلموا أنكم متوجهون الى ذلك الملك المقتدر الذي له ملك السماوات والارض وما بينهما ، والذي يفتقر اليه كل من سواه . واعلموا أنكم إذا مثلتم بين أيدينا بمثل هذا العجز والضراعة والخشوع والاخلاص ، وأديتم ما عليكم من عبادتنا بإنابة القلب وصفاء النية ، فإنا سنعطيكم من عندنا أجراً عظيماً .

وإذا نظرت في الحج بنظرة اخرى ، فانه أهم عبادة الله تعالى وأعظمها شأناً ، فلماذا يفارق الانسان عمله وتجارته وأبناءه وأصدقاءه، ويعاني وعثاء السفر الطويل ومشقاته ، إن كان قلبه خالياً من حب الله تعالى ؟ إن نفس قصد الانسان حج البيت ، دليل على إخلاصه وحبه لله تعالى . ثم ان الانسان عندما يخرج من بيته ويبدأ الرحلة الى بيت الله الحرام ، لا يكون شأنه فيها شأنه في عامة الرحلات ، فان جل همه يكون في هذه الرحلة منصرفاً الى الله تعالى ، وتزداد في قلبه عواطف الحب والاشتياق الى بيته الحرام . وعلى قدر ما ينطوي عليه بعد السفر ، ويشعر بدنو الكعبة ، تزداد فيه عاطفة الحب ، وتتضاعف جاذبية الشوق ، وينفر قلبه من الذنوب والمعاصي ، ويندم على ذنوبه السالفة ، ويدعو ربه ، ويتضرع اليه أن يوفقه لطاعته في الأيام الباقية من حياته ، ويبدأ يشعر بلذة غير عادية في ذكر الله تعالى وعباداته ، ويسجد سجدات طويلة لا يطيب له أن يرفع منها

راسه . وكذلك عندما يتلو القرآن ، فشتان بين ما يحسه من اللذة وما كان يحسه منها من قبل . وعندما يصوم ، يجد حلاوة ما كان يجدها من قبل . ثم عندما يدخل أرض الحجاز ويطأها بقدمه ، يتمثل في عينيه تاريخ الاسلام في مراحله الاولى ، ويشاهد في كل بقعة من بقاع تلك الارض الطاهرة ، آثار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأحبهم وأحبوه ، وضحوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وتشهد له كل ذرة رملية في تلك الارض بعظمة الاسلام ، وتنطق كل حصاة من حصاها بأن هذه هي الأرض المقدسة التي بدأ منها الاسلام وانبثق منها نوره وعلت منها كلمته . فهكذا يمتلىء قلب المسلم ولعاً بالله تعالى ، وحباً لدينه . وعندما يرجع الى وطنه ، يجد في قلبه أثرا من آثار الاسلام لا يمحى إلى آخر أيام حياته .

والحج فيه كثير من المنافع الدنيوية ، إلى هذه المنافع الدينية . فمنها ان مكة المكرمة قد جعلت مركزاً للمسلمين ، تهوي اليه نفوسهم من جميع نواحي الارض ، على اختلاف سلالاتهم وأوطانهم ، فيشعرون انهم إخوة فيما بينهم وانهم لا يؤلفون بمجموعهم الا أمة واحدة ؛ فكأن الحج هو عبادة الله تعالى في جانب ، ومؤتمر عالمي سنوي يفد اليه المسلمون من جميع نواحي الارض وأقطارها بالجانب الآخر فهو أكبر وسيلة وأنجح طريقة ، لتربية الاخوة الاسلامية العالمية ، على الاتحاد والمحبة والتعاون .

حماية الاسلام :

وآخر فرائض الله على عباده هي حماية الاسلام . وهـذه

الحماية ، وإن لم تكن من أركان الاسلام ؛ ولكنها فريضة مهمة من فرائض الاسلام، وقد أبدىءوأعيد فيذكرها في الكتاب والسنة فيغير موضع . فما هي حماية الاسلام ؟ ولماذا افترضها الله على المسلمين ؟ يمكن ان تعرف ذلك بمثل أضربه لك لهذا الغرض . هب أن لديك رجلاً يدعى انه صديقك ومحبك ، ولكن يشهد عمله عند كل بلاء ينزل بك انه لايحبك ، ولا يبالي بما انت فيه من الشدة ، ولا يهمه نفعك او ضررك ، ولا يتحرج ان يأتي لمنفعته الذاتية بكل عمل يجلب اليك الضرر والشدة ، ويقعد عن كل عمل فيه منفعتك ، لانه لا يجد فيه سبيلا الى منفعته الذاتية ، ولا يمد اليك يد المساعدة عند المصيبة ، بل يشارك ويشجع الذين يذمونك ويطعنون فيك ، أو يسكت على الأقل عن ردعهم عن ذمك ، ويساعد أعداءك عندما يكيدون لك ، أو لا يحاول إنقاذك من الوقوع في مكايدهم على الأقل — فهل لك أن تظن هذا الرجل هو صديقك ومحبك ، وتصدقه في دعواه ؟ كلا ؟ ! فانه يدعي بصداقته لك بلسانه ، ولا يحبك من قلبه في حقيقة الأمر . ان الصداقة معناها ان يحب الانسان صديقه من قلبه ، ويخلص له ، ويواسيه ويواليه ، ويشاطره كل ما يحل به من الفرح أو الترح ، ويناصره على أعدائه ، ولا يرضى ان يسمع أحداً يذكره بسوء وإذا لم يكن في المرء كل هذا ، فهو منافق كاذب في دعواه .

فقس على هذا المثال مايجب عليك اذا ادعيت أنك مسلم . إن هذه الدعوى معناها أن تكون فيك الحمية الاسلامية ، والغيرة على

الايمان . وحب الدين ، والنصح الصادق لاخوانك المسلمين ، ويكون نفع الاسلام وخير المسلمين نصبَ عينيك في كل مايأتي به من عمل في هذه الدنيا ، ولا يصدر عنك عمل مضر للاسلام مخالف لأحكامه ومقاصده ، تحقيقاً لمصلحة من مصالحك أو دفعاً لآفة من آفاتك الذاتية . وكذلك يجب عليك أن تشارك بنفسك ومالك في كل عمل فيه خير للاسلام والمسلمين ، وتبتعد عن كل عمل يضر الاسلام والمسلمين ، ولا تعتبر عزتك الا في عزة الاسلام والمسلمين ، ولا تصبر على مذلة الاسلام والمسلمين كما لا تصبر على مذلة نفسك ، ولا تعاون أعداء الاسلام والمسلمين كما لاتعاون أعداء نفسك ، وتكون مستعداً لكل نوع من التضحية بنفسك ومالك دفاعاً عن الاسلام وذوداً عن كيان المسلمين ، كما تكون مستعداً لكل نوع من التضحية دفاعاً عن نفسك . ينبغي أن يكون كل من يقول : إني مسلم متصفاً بهذه الصفات ، وإلا عُدّ من المنافقين ، وشهد عليه عمله بأنه كاذب في دعواه اللسانية .

ومن شعب « حماية الاسلام » هذه « الجهاد في سبيل الله » المعروف في الاسلام ، فان كلمة « الجهاد » معناها لغةً بذل الجهود واستنفاد القوى في أي أمر من الامور ، وهكذا فكل من يسعى لاعلاء كلمة الاسلام بما عنده من المال والنفس والقلم واللسان ، فانه يجاهد في سبيل الله من غير شك بمعنى الجهاد العام ، ولكن تطلق هذه الكلمة بمعناها الخاص على الحرب التي يقوم بها المسلمون في وجوه أعداء الاسلام ، لا لسبب غير ابتغاء وجه ربهم ، متجردين عن كل

غرض من أغراضهم الدنيوية . فهذا الجهاد فرض كفاية على المسلمين في الشريعة الاسلامية ؛ أي أنـه وان كانت ترجع التبعة فيه على المسلمين جميعاً ، ولكنها تسقط عنهم ، إذا قامت به جماعة منهم ، وأدته عن سائرهم . غير أنه اذا هجم الأعداء على قطر من الأقطار الاسلامية ، أصبح هـذا الجهاد فرض عين على أهل ذلك القطر كالصلاة والصوم . واذا كانوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم ، فواجب على كل فرد من مسلمي الاقطار التي تجاور أرضهم أن ينصرهم بماله ونفسه . واذا لم تنكسر حملة الأعداء حتى ولا بعد نصرهم ، عاد نصرهم فرض عين على مسلمي الدنيا جميعاً كالصلاة والصوم ، أي أنه اذا تقاعس عن نصرهم أحد منهم في أي قطر من الأقطار ، كان آثما . وفي مثل هذه الأحوال ، يصبح « الجهاد في سبيل الله » أكثر أهمية وأعظم خطورة من الصلاة والصوم ، فان الايمان يختبر في الجهاد ، فالذي لايناصر الاسلام ، ولا يجاهد مع المسلمين ، حتى في حين البلاء والشدة ، فانه مشكوك في إيمانه مرتاب في إسلامه ، وأي فائدة تحصل له من صلاته وصومه إذ ذاك ؟ أما المسلم الذي يناوىء الاسلام ويمالىء على المسلمين اعداءهم، فهو الشقي الذي لاشك في نفاقه ، قد حبطت صلاته وصومه وزكاته وحجه .

الفصل السادس

الدين والشريعة

الفرق بين الدين والشريعة ـ وسائل معرفة أحكام الشريعة ـ الفقه ـ التصوف .

إن كل ما بينا لك حتى الآن في الفصول السابقة ، كان عن الدين . وها نحن نريد أن نبين لك الآن شيئاً عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن ينبغي لك قبل أن تعرف ماهي الشريعة ، وما هو الفرق بين الدين والشريعة .

الفرق بين الدين والشريعة :

بينا لك أن جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى ، ماعلموا الناس إلا الدين الاسلامي ، وهو ان تؤمن بذات الله تعالى وصفاته واليوم الآخر على الوجه الذي هدى اليه هؤلاء الأنبياء ، وأن تؤمن بكتب الله وتصدق بها ، ولا تتبع إلا ذلك الطريق المستقيم الذي قد أوضحته هذه الكتب ، وأن تتبع رسل الله الصادقين ولا تتبع غيرهم ، وأن توحد الله ولا تشرك بعبادته أحداً .

ويأتي بعد هذا الدين شيء آخر هو « الشريعة » ، أي طرق

العبادة ، ومبادىء المعيشة والاجتماع ، وقوانين مابين العباد من المعاملات والعلائق ، والحدود بين الحلال والحرام . فالله تعالى أرسل في بدء الأمر بشرائع مختلفة الى أنبيائه ، مراعياً في ذلك أحوال مختلف الأمم وازمانها ، ليربّوا كلاً من هذه الأمم على حدة ، على الاخلاق والمدنية والحضارة ويهيؤوها جمعاء لاتباع «قانون شامل» من ربهم . فلما تم كل ذلك على أيدي مختلف الأنبياء السابقين ، جاء في آخرهم سيدهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، بذلك القانون الشامل الذي صيغت مواده للدنيا كلها الى يوم القيامة . فليس الدين الآن ، إلا نفس الدين الذي علمه وهدى اليه الأنبياء السابقون ، ولكن نسخت شرائعهم ، واقيمت مكانها شريعة كاملة لاتختلف فيها طرق العبادة ، ومبادىء المعيشة ، وقوانين مابين العباد من المعاملات والحدود بين الحلال والحرام وللناس جميعاً الى يوم القيامة .

وسائل معرفة أحكام الشريعة :

وعندنا وسيلتان لمعرفة مبادىء الشريعة المحمدية وأحكامها : القرآن والسنة . أما القرآن فانك تعرف انه كلام الله ، وكله لفظةً لفظة من عنده تعالى : أما السنة ، فالمراد بها الروايات التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أولها الى آخرها شرحاً للقرآن ، وما زال صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى الناس وجاءه الوحي ، مشتغلا بتعليم الناس وإرشادهم الى الطريق المرضي عند الله لقضاء حياتهم ، مدة

٢٣ سنة متوالية . ففي هذه المدة غير اليسيرة ، ما زال أصحابه من الرجال والنساء ، وعشيرته الاقربون ، وأزواجه المطهرات، يستمعون الى كلامه بغاية من الاهتمام ، ويتبعون أعماله ، ويستفتونه في كل مايعرض لهم في حياتهم من مختلف الشؤون والمعاملات، فتارة يأمرهم بشيء وأخرى ينهاهم عن شيء آخر ، فيعي الشاهدون أوامره ونواهيه وأحكامه ، ويبلغونها الغائبين ؛ وكذلك اذا جاء النبي صلى الله عليه وسلم بعمل خاص ، وعاه عنه الشاهدون وبلغوه الغائبين ؛ وكذلك كان اذا أتى رجل في صحبته صلى الله عليه وسلم بعمل ، إما أن يسكت عليه أو ينهاه عنه ، فكان الناس يحفظون عنه مثل هذه الامور أيضاً . والذين جاؤوا من بعدهم واتبعوهم باحسان ، حفظوا عنهم كل ما سمعوهم يحدثونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دونوا هذه الأحاديث كلها في الكتب ، مع ذكر اسماء الذين رووها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، وهكذا أصبحت في أيدي الناس مجموعة كبيرة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . واشهر هذه الكتب واكثرها اعتماداً الكتب التي دونها الامام البخاري ، والامام مسلم ، والامام مالك ، والامام الترمذي ، والامام أبو داود ، والامام ابن ماجه ، والامام النسائي .

الفقه :

وقد استعرض جماعة من كبار ائمة المسلمين احكام القرآن والسنة ، ورتبوا بناء عليها قوانين الاسلام المفصلة المنتشرة في الكتب ، يريدون بذلك تهيئتها بسهولة لعامة المسلمين . وهذه

القوانين المستنبطة من أحكام القرآن والسنة ، هي التي تعرف « بالفقه » . لايمكن لكل فرد من أفراد الامة أن يستنبط الاحكام من القرآن مالم يكن عنده من العلم بالسنة مايتمكن به من معرفة أحكام الشريعة بنفسه ، فلا يمكن لمسلمي الدنيا جميعا أن يتبرأوا مما في أعناقهم من الجميل لهؤلاء الأئمة الكبار ، الذين عانوا المشاق ورتبوا لهم كتب الفقه ، بعد تحقيق مستمر وجهود مضنية متوالية. ولا شك أنه من نتائج جهود هؤلاء الأئمة الكرام ، مايجد عامة المسلمين اليوم من السهولة في اتباع الشريعة الاسلامية ومعرفة أحكامها .

وقد كان رتب كتب الفقه رجال كثيرون على أساليبهم في بدء الأمر ، ولكن بقي في آخر الأمر أربعة مذاهب فقهية ، وهي التي يتبعها اليوم معظم مسلمي الأرض .

١ ــ **الفقه الحنفي** : رتبه الامام أبو حنيفة رضي الله عنه بمساعدة ومشاورة أصحابه كأبي يوسف ومحمد وزُفرَ وغيرهم من العلماء الكبار الآخرين .

٢ ــ **والفقه المالكي** : رتبه الامام مالك بن أنس رضي الله عنه .

٣ ــ **والفقه الشافعي** : رتبه الامام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه .

٤ ــ **والفقه الحنبلي** : رتبه الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

وقد تم ترتيب هذه المذاهب الفقهية الأربعة ، في القرنين الأولين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وان الاختلافات التي

توجد فيما بينها اختلافات فطرية ، فان كل أمر اذا تعرض له عدة رجال وحاولوا أن يعرفوا حقيقته ، فلا بد أن تأتي آراؤهم فيه مختلفة فيما بينها ولو على قدر يسير . ولكن لما كان الجميع أئمة بررة صادقين ورعين ، يتبعون الحق ولا يرضون عنه بديلاً ، فالمسلمون جميعا يعتقدون صدق مذاهبهم وكونها على الحق .

ولكن من الظاهر أنه لايمكن ان يتبع الانسان في أمر من أموره إلا مذهبا واحداً من هذه المذاهب الأربعة ، فالذي عليه أكثر علماء المسلمين ، ان المسلمين ينبغي لهم أن يتبعوا أحد هذه المذاهب . . غير أن هناك جماعة من العلماء ، يقولون بأن لا حاجة الى اتباع مذهب فقهي بعينه . بل يجب على من أوتي العلم أن يستنبط الأحكام من القرآن والسنة مباشرة ، واما الذين لا علم عندهم ولا يقدرون ان يستنبطوا الأحكام من القرآن والسنة بأنفسهم ، فعليهم ان يتبعوا كل من يرونه على الحق ويطمئنون الى علمه وصدقه وتقواه من علماء المسلمين . فيُعرف هؤلاء الجماعة بأهل الحديث ، وهم على الحق مثل الطوائف الاربعة المذكورة .

التصوف :

إن علاقة الفقه إنما هي بظاهر عمل الانسان فقط ، ولا ينظر إلا هل قمت بما أمرت به على الوجه المطلوب أم لا ؟ فان قمتَ ، فلا تهمه حال قلبك وكيفيته . أما الشيء الذي يتعلق بالقلب ويبحث عن كيفيته ، فهو التصوف . إن الفقه لاينظر في صلاتك مثلاً إلا هل قد أتممت وضوءك على الوجه الصحيح أم لا ؟ وهل صليت مولياً

وجهك شطر المسجد الحرام أم لا ؟ وهل أديت أركان الصلاة كلها أم لا ؟ وهل قرأت في صلاتك بكل ما يجب أن تقرأ فيها أم لا ؟ فان قمت بكل ذلك ، فقد صحت صلاتك بحكم الفقه . إلا أن الذي يهم التصوف هو مايكون عليه قلبك حين أدائك هذه الصلاة من الحالة: هل انبت فيها الى ربك أم لا ؟ وهل تجرد قلبك فيها عن همـوم الدنيا وشؤونها أم لا ؟ وهل انشأت فيك هذه الصلاة خشية الله واليقين بكونه خبيراً بصيراً ، وعاطفة ابتغاء وجهه الأعلى وحده أم لا؟ والى أي حد نزهت هذه الصلاة روحه؟ والى أي حد أصلحت أخلاقه ؟ والى أي حد جعلته مؤمناً صادقاً عاملاً بمقتضيات ايمانه ؟ فعلى قدر ما تحصل له هذه الأمور ــ وهي من غايات الصلاة وأغراضها الحقيقة ــ في صلاته ، تكون صلاته كاملة في نظر التصوف ؛ وعلى قدر ما ينقصها الكمال من هذه الوجهة ، تكون ناقصـــة في نظر التصوف . فهكذا لايهم الفقه في سائر الأحكا الشرعية إلا هل أدى المرء الاعمال على الوجه الذي أمره به لأدائها أم لا ؟ أما التصوف فيبحث عما كان في قلبه من الاخلاص وصفاء النية وصدق الطاعة عند قيامه بهذه الأعمال .

ويمكنك أن تدرك هذا الفرق بين الفقه والتصوف بمثل أضربه لك . إنك إذا أتاك رجل ، نظرت فيه من وجهتين : إحداهما هل هو صحيح البدن كامل الأعضاء أم في بدنه شيء من العرج أو العمى ؟ وهل هو جميل الوجه أو دميمه ؟ وهل هو لابس زيـاً فاخراً أو ثياباً بالية : والوجهة الأخرى أنك تريد أن تعرف أخلاقه وعاداته

وخصاله ومبلغه من العلم والعقل والصلاح . فالوجهة الأولى وجهة الفقه ، والوجهة الثانية وجهة التصوف . وكذلك إذا أردت أن تتخذ أحداً صديقاً لك ، فانك تتأمل في شخصه من كلا الوجهتين ، وتحب أن يكون جميل المنظر وجميل الباطن معاً . كذلك لاتجمل في عين الاسلام إلا الحياة التي فيها اتباع كامل صحيح لأحكام الشريعة من الوجهتين الظاهرة والباطنة . ومثل الذي طاعته صحيحة في الظاهر ، ولكن يعوزه روح الطاعة الحقيقية في الباطن ، كمثل جسد جميل الوجه قد فارقه روحه . ومثل الذي في عمله الكماليات الباطنة كلها وليست طاعته صحيحة على حسب الوجه المراد في الظاهر ، كمثل رجل صالح دميم الوجه مطموس العينين أعرج القدمين .

وسهل عليك بهذا المثال أن تعرف العلاقة بين الفقه والتصوف . ولكن مما يدمي القلب ويبكي العين ، أنه لما أصيبت العلوم والأخلاق بالزوال والانحطاط في الأزمان الأخيرة ، وحدث بزوالها ما حدث من المفاسد والسيئات ، ُقذّرت عين التصوف الصافية أيضاً ، وتعلم المسلمون كثيراً من الفلسفات غير الاسلامية من الأمم الضالة ، وأدخلوها في الاسلام باسم التصوف ، وأطلقوا اسم التصوف على كثير من العقائد والطرق الأجنبية التي لا أصل لها في الكتاب والسنة . ثم تدرج هؤلاء الناس في تحرير انفسهم عن قيود الاسلام، وقالوا إنه لاعلاقة للتصوف بالشريعة، فان هذافي واد، وذلك في واد ، وما على الصوفي أن يقيدنفسه بالقانون وأحكام الشريعة. إنك كثيراً ما

تسمع بمثل هذه الأوهام والترهات من كثير من الصوفية الجاهلين ، ولكن ليست كلها في حقيقة الأمر ، إلا من قبيل الخرافات والأكاذيب. لايحل لصوفي أن يتحلل من قيود الصلاة والحج والزكاة؛ ولا يحق لصوفي أن يخالف حكماً من الأحكام التي بينها الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، عن الاقتصاد والاجتماع والمعاشرة والأخلاق والمعاملات والحقوق والواجبات وحدود الحلال والحرام ؛ ولا يستحق من لا يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعاً صحيحاً ولا يتقيد بما أرشد إليه من صراط الحق ، أن يسمي نفسه صوفياً إسلامياً ، فان مثل هذا التصوف ليس من الاسلام في شيء أبداً .
إنما التصوف عبارة ، في حقيقة الأمر ، عن حب الله ورسوله الصادق ، بل الولوع بهما ، والتفاني في سبيلهما . والذي يقتضيه هذا الولوع والتفاني ، الا ينحرف المسلم قيد شعرة عن اتباع أحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فليس التصوف الاسلامي الخالص بشيء مستقل عن الشريعة ، وإنما هو القيام بأحكامها بغاية من الاخلاص وصفاء النية وطهارة القلب .

الفَصْلُ السَّابعُ

أحكام الشريعة

مبادىء الشريعة ـ الحقوق وأقسامها الاربعة ـ حقوق الله ـ حقوق النفس
حقوق العباد ـ حقوق سائر المخلوقات ـ الشريعة العالمية الدائمة .

في هذا الفصل الأخير نبين لك من مبادىء الشريعة وأحكامها المهمة ما ستعلم منه كيف تجعل الشريعة الاسلامية حياة الانسان مقيدة بضابطة محكمة وما في هذه الضابطة من الحكم والمصالح .

مبادىء الشريعة :

إنك إذا تأملت في نفسك ، علمت أنك قد جئت هذه الدنيا مودعاً في نفسك كثيراً من القوى ، التي تقتضي كل واحدة منها أن تستخدمها ولا تهمل شأنها . ففيك العقل والعزم والرغبة ، والنظر والسمع والذوق ، وقوة اليدين والرجلين ، وعاطفة النفرة والغضب والشوق والحب والخوف والطمع ، وليس شيء منها بعديم المنفعة ، وما أوتيته إلا لأنك في حاجة إليه . والذي يتوقف عليه نجاحك في هذه الدنيا ، أن تحقق ما تتطلبه اليك فطرتك وطبيعة نفسك .

ولكن لا يمكن ذلك الا بأن تستخدم القوى التي أوتيتها في نفسك .

ثم لا يخفى عليك أنك قد أوتيت وسائل ، يمكنك أن تستخدم بها هذه القوى المودعة في نفسك . فأول وسيلة من هذه الوسائل هي جسدك ، الذي تجد فيه الأدوات الضرورية كلها ، ثم حولك هذه الدنيا ، التي انتشرت فيها وسائل مختلفة لاتقع تحت الاحصاء. ففيها الناس من جنسك لمساعدتك ، والبهائم لخدمتك ، والنباتات والجمادات والأرض والماء والهواء والحر والنور ، وما إلى مثل هذه الأشياء الكثيرة التي لايحصيها إلا الله . والله تعالى ما خلق هذه الأشياء في هذا الكون إلا لتستخدمها وتستمد منها في قضاء حياتك.

ثم انظر في الواقع من وجهة أخرى .

إنك ما أوتيت هذه القوى إلا لنفعك لا لمضرتك . فالصورة الصحيحة لاستخدامها صورة فيها النفع لا المضرة ، وان كانت فيها المضرة ، فالى حد لابد منه . يقول العقل : إن كل صوررة دون هذه الصورة غير صحيحة . فمثلاً إذا عملت عملاً مضرا في نفسك ، كنت على الخطأ ، وكذلك اذا استخدمت قوة من قواك على وجه يضر غيرك ، كنت أيضاً من المخطئين . وكذلك إذا استعملت قوة من قواك على وجه يهمل ماأودع في نفسك من الوسائل ، كنت أيضاً من الخاطئين . يشهد لك عقلك أن المضرة ، ولو من أي نوع كانت ، عليك أن تبتعد عنها ، ولا تصبر عليها إذا كان الابتعاد عنها غير ممكن أو إذا كانت بإزائها فائدة كبيرة .

ثم إذا تقدمت ، علمت أن الدنيا يوجد فيها نوعان من البشر ،

نوع من الذين يستخدمون بعض قواهم عمداً ، في الوجوه التي تفسد عليهم سائر قواهم ، أو تجلب المضرة على غيرهم من البشر ، أو هم يهملون أدواتهم وقواهم التي أودعوها في أنفسهم . والنوع الثاني ، من الذين يفعلون كل ذلك من غير قصد من أنفسهم . فرجال النوع الأول من الأشرار ، وهم في حاجة الى قانون شديد يأخذ على أيديهم . ورجال النوع الثاني من الجهال ، الذين لايعلمون شيئاً ، وهم محتاجون الى علم يشعرهم بالصورة الصحيحة لاستخدامهم قواهم .

ولقد جاءت الشريعة الاسلامية تسد هذه الحاجة ، وتحقق هذا الغرض ، فلا تريد أن تهمل قوة من قواك ، أو تمحو رغبة من رغباتك ، أو تنفي من عواطف نفسك ، فهي لاتقول لك : اترك الدنيا ، واقض أيام حياتك في الجبال والغابات والكهوف والمغارات ، واشدد على نفسك واكسر سورتها ، وذللها بالمصائب والشدائد ، وحرم عليها زينة الحياة الدنيا ولذاتها ونعمها . كلا ! فانها شريعة عني بوضعها الله الذي خلق للانسان هذه الدنيا ، فكيف يرضى لكونه بالامحاء والخراب والفناء؟ إن الله تعالى ماأودع الانسان في نفسه قوة لاتنفعه ولا يحتاج اليها . وكذلك ما خلق شيئاً في السماوات ولا في الارض عبثاً ، بل يريد أن يبقى معمل الكون هذا يسير سيراً مستمراً على نظام مدبر ، ينتفع فيه الانسان من كل شيء ، ويستخدم مختلف أسبابه ووسائله ، ولكن على وجه لا يضر نفسه ولا أحداً غيره . ولهذا الغرض نفسه وضع الله تعالى ما وضع من قواعد الشريعة وضوابطها . وهكذا حرمت هذه الشريعة على

الانسان كل شيء يجلب اليه الضرر ، واحلت له كل شيء يعود عليه بالنفع ولا يضر غيره . إن المبدأ الذي يقوم عليه بناء الشريعة الاسلامية ، هو أن الانسان من حقه أن يعمل لتحقيق رغبات نفسه وحاجاتها ، ويسعى في سبيل منفعته الذاتية كيفما يشاء . ولكن من الواجب عليه في الوقت نفسه ، ألاّ يتمتع بهذا الحق ، إلا من حيث لا ُيضيع حقوق غيره من البشر بجهله أو شره ، بل ينبغي أن يكون مساعداً لهم ومتعاوناً معهم على قدر وسعه . أما الامور التي فيها ناحية للنفع وناحية للضرر ، فتقول فيها الشريعة : إن الانسان عليه أن يتحمل الضرر الخفيف للنفع الكبير ، ويترك النفع التافه احترازاً من الضرر الشديد .

لايمكن أن يعرف كل انسان ، في كل زمان ، عن كل شيء أو عمل ، مافيه من النفع أو الضرر . ولذا وضع الله تعالى — وهو العليم الخبير الذي لايخفى عليه سر من أسرار الكون — نظاماً صحيحاً كاملاً لحياة الانسان ، وما كان الناس ليفطنوا إلى كثير من مصالح هذا النظام في القرون القديمة ، ولكن رقي العلم في هذا الزمان قد كشف عنها الغطاء ، بل لايزال الناس يجهلون كثيراً من مصالحه في هذا الزمان أيضاً ، ولكنها لاتزال تتكشف وتتجلى لأعين الناس ، على قدر ما يكتب للعلم من الرقي والنمو .

والذين عوّلوا على علمهم الناقص وعقولهم الضعيفة ، ما وجدوا لأنفسهم بداً في آخر الامر ، أن يختاروا قاعدة من قواعد هذه الشريعة نفسها ، بعد ما هاموا على وجوههم ، وخبطوا في ظلمات

الجهل والخطأ والضلال خبط عشواء إلى قرون . أما الذين اعتمدوا على رسول الله ، واهتدوا بهديه ، واستناروا بنوره ، فقد أمنوا عواقب الجهل ومضراته ، فهم يواظبون دائماً على قانون وضع على قواعد العلم الصحيح الخالص ، سواء اعرفوا ما فيه من المصالح ، وما في اتباعه من المنافع ، أم لم يعرفوا .

الحقوق وأقسامها الأربعة :

وبحكم الشريعة الاسلامية ، يجب على كل فرد من أفراد البشر أربعة أقسام من الحقوق :

١ ــ حقوق الله .

٢ ــ حقوق النفس .

٣ ــ حقوق العباد .

٤ ــ حقوق ماتحت يده في هذه الدنيا من شيء يستخدمه وينتفع منـــه .

من الواجب على كل مسلم صادق ، أن يعرف هذه الاقسام الأربعة من الحقوق ، ويؤديها بكل إخلاص وأمانة وصدق . والشريعة الاسلامية قد بينت كلاً من هذه الاقسام على حـــدة ، ووضعت وأوضحت لأدائها من الطرق والمناهج ، مايساعد البشر على أدائها معاً في آن واحـــد ، بحيث لايضيع منها حقٌ ما ضمن حـــدود الامكـــان .

حقوق الله:

إن أول حق من حقوق الله تعالى أن يُؤمن به ، ولا يُشرك به ،

ولا يتّخذ غيره إلهاً ولا رباً . ويؤدي هذا الحق بالايمان بكلمة « لا إله إلا الله » كما بينا لك من قبل .

والحق الثاني من حقوق الله ، ان ُيذعن إذعاناً تاماً لما جاء من عنده من الحق والهداية . ويؤدي هذا الحق ، بالايمان بـ « محمد رسول الله » كما أوضحنا لك من قبل .

والحق الثالث من حقوق الله ، أن « يطاع » ؛ ويؤَدى هذا الحق ، باتباع القانون الذي بينه كتاب الله المجيد وأوضحته وشرحته سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أشرنا اليه من قبل .

والحق الرابع من حقوق الله ، ان « ُيعبد » ؛ ولأداء هذا الحق ، فرض على الانسان مافرض من الفرائض والواجبات التي مرَّ ذكرها في الفصل الخامس . ولأن هذا الحق أولى من غيره ، يجب أن يضحّي لأدائه بسائر الحقوق الى حدٍ ما . فمثلا ان الانسان عندما يقوم لأداء فريضة الصلاة أو الصوم ، يضحي بكثير مما عليه من حقوق نفسه : يستيقظ مبكراً ، ويتوضأ بالماء البارد ، ويترك كثيراً من أعماله المهمة وأشغاله الشاغلة غير مرة واحدة في الليل والنهار ، لأداء فريضة الصلاة ، ويدع طعامه وشرابه ، ويكبح نفسه شهراً كاملا ، لأداء فريضة الصوم . ويؤثر حب الله على حب المال لأداء فريضة الزكاة ؛ ويقاسي وعثاء السفر وشدائده وينفق كثيراً من أمواله ، في الحج ؛ ويضحي بنفسه وماله في الجهاد . وكذلك يضحي بما عليه من حقوق الناس لأداء حقوق الله الى حدٍ قليل أو كثير . ففي الصلاة مثلا ، يكف العبد عن خدمة سيده . ليعبد سيده الأكبر ، ويؤدي ما عليه من حقه ؛ وفي الحج ، يفتر عن

شؤون معاشه وتجارته ، ويغادر أهله وأبناءه ، ويسافر الى بيت الله الحرام ، مما يمس بحقوق كثير من غير شك ؛ وفي الجهاد ، لا َيقتل الانسان ولا ُيقتل إلا لوجه الله تعالى وحده . وكذلك يضحي الانسان لأداء حقوق الله ، بكثير من الأشياء التي يتصرف فيها وهي تحت يده ، كالتضحية بالحيوانات وإنفاق المال .

على أن الله تعالى وضع لحقوقه حدوداً ، حتى لايضحي بحقوق غيره لأداء حق من حقوقه إلا الى حد لابد منه . خذ لذلك الصلاة مثلاً ، فالله تعالى ماأراد بك العسر في أداء الصلاة بل أراد اليسر ، فانك إذا لم تجد الماء ، أو كنت مريضاً ، فلك أن تتيمم صعيداً طيباً ؛ وإن كنت على سفر ، فلك ان تقصر من صلاتك ؛ وان كنت مريضاً ، فلك أن تصلي قاعداً أو مضطجعاً ؛ وإن الذي تقرأ به في صلاتك من القرآن ليس بكثير ، حتى إنك لاتصرف في القراءة به إلا دقائق معدودة ؛ تقول الشريعة : إنك اذا كنت في حال من الدعة والطمأنينة ، فلك ان تقرأ في صلاتك بما شئت من القرآن ، كسورة البقرة أو آل عمران أو النساء ، أو غير هذه من السور الطوال ، ولكن لايجوز لك أن تطيل صلاتك في أوقات شغلك . ثم إن الله تعالى ، وان كان يفرح كثيراً إذا تطوع الانسان وتقرب اليه بالنوافل بعد الصلوات المكتوبة ، ولكنه لايريد أبدا أن تحرم على نفسك نوم الليل وراحة النهار ، أو تقضي أوقات الكسب في النوافل ، أو تنقطع الى الصلاة عن شؤون الدنيا كلها ، ولا تكترث لما عليك من حقوق عباد الله .

وكذلك قد يسر الله عليك كثيراً في الصوم ، فانه ما افترض الصوم على عباده إلا مدة شهر من السنة ، ويجوز تأخيره الى أيام أخر ، اذا كان الانسان مريضاً أو كان على سفر . ولا يجوز أن تضاف دقيقة واحدة إلى ماحدد للصوم من الوقت ، وللصائم أن يأكل ويشرب حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود — أي السحر — من الفجر . ثم إذا أتم صومه إلى غروب الشمس ، فعليه أن يفطر على الفور . ثم إن الله تعالى وان كان يفرح بعبده كثيراً إذا صام صوم التطوع بعد صيام شهر رمضان المكتوب ، ولكنه لايحب منه أبداً أن يواصل في صومه وينهك بدنه ويقعد عن أعمال الدنيا .

وكذلك ما قرر الاسلام إلا أزهد مقدار من المال لايتاء الزكاة ، وما فرضه إلا على الذين يملكون النصاب . فمن تطوع بعد ذلك وتصدق بأكثر من ذلك في سبيل الله ، فان الله وان كان يرضى عنه ويحب عمله ويحبّذ عاطفته ، ولكنه لا يريد منه أن يضحي بما عليه من حقوق نفسه وأهله ، وينفق في سبيله جميع أمواله ، ويقعد ملوماً محسوراً بين الناس ، بل يجب عليه القصد والاعتدال في هذا الباب أيضاً .

ثم انظر إلى الحج ؛ فالمعلوم في بابه ان الله تعالى لم يفترضه الا على الذين يملكون الزاد ، ويقدرون على تحمل وعثاء السفر ومشاقه . ولكن الله قد زاد للناس السهولة فيه ، فلم يفترضه على الانسان إلا مرة واحدة في طول عمره . وان كانت في الطريق الحرب أو الفتنة ، أو خاف على نفسه ، فله ان يُرجيء الحج إلى

ما بعد زوال تلك الفتنة . وكذلك قرر أن لابد للانسان من رضا الوالدين إذا اراد الحج لئلا يتأذيا في غيابه لعجزهما وكبر سنهما . فيتبين من كل ذلك ان الله تعالى قد راعى كثيراً حقوق غيره في حقوقه جل شأنه .

واكبر تضحية بالحقوق الانسانية يؤديها الانسان في الجهاد ، فان الانسان في الجهاد يضحي بنفسه وماله وبنفوس الآخرين وأموالهم ابتغاءً لمرضاة الله ، ولكن من قواعد الاسلام ومبادئه الأساسية ، كما بينا لك من قبل ، ان يُتَحَمَّل الضررُ الخفيف احترازاً من الضرر الشديد . فاذا تفكرت في هذا المبدأ وعرفته ، وجدت أن قتل بضع مئات أو الوف من أفراد البشر ، أهون ضرراً بالنسبة لأن تعلو في الأرض كلمة الباطل بازاء الحق ، ويغلب دين الله على أمره بازاء قوى الكفر والشرك والالحاد ، ويعم في الارض الضلال والاباحية والفوضى . فاحترازاً من هذا الضرر الشديد أمر الله تعالى عباده المؤمنين ان يتحملوا في سبيله وابتغاء وجهه مايصيبهم في أنفسهم واموالهم من الضرر الخفيف . ومع ذلك أمرهم الا يقتلوا إلا نفساً لا بد من قتلها ، ولا يعتدوا على العجزة والنساء والأطفال والجرحى والمرضى ، ولا يقاتلوا إلا الذين يقاتلونهم حمايةً لباطلهم ، ولا يعثوا في أرض العدو مفسدين من غير ما حاجة ولا سبب ، وأن يعدلوا بين الاعداء إذا فتحوا بلادهم وانتصروا عليهم ، ويوفوا بكل ما يعاهدونهم عليه ، ولا سبيل لهم عليهم إذا كفوا أيديهم وأمسكوا عن معاداة الحق ومخالفته ومناصرة الباطل . فيدل كل ذلك ، على أن

الله لم يُجزِ لأداء حقه ، إلا تلك التضحية بالحقوق الانسانية التي لا بد منها .

حقوق النفس :

ولك أن تتناول الآن القسم الثاني مما على الانسان من الحقوق ، وهي حقوق نفسه .

ولعل العجب يأخذك إذا قلت لك : إن الانسان يظلم نفسه أكثر مما يظلم غيره ، لأن كل إنسان يحس ويحسب أن نفسه أحب إليه من غيره ، ولا أرى أحداً يقر بأنه عدو لنفسه . لكنك إذا تدبرت هذا الأمر قليلاً ، تبينت لك حقيقته .

من أبرز مواطن الضعف التي فطر عليها الانسان ، أنه إذا غلبته شهوة من الشهوات ، انقاد لها كل الانقياد ، ولا يبالي بما يصيبه لأجلها من الضرر في نفسه ، سواء أكان يشعر بذلك أو لا يشعر . ترى رجلاً قد افتتن بالسُكر ، يعمى في سبيله ويتحمل لأجله المضرات الفادحة في صحته ونفسه وماله وعرضه . وترى رجلا غيره قد أولع بلذة الطعام ، يأكل كل ما يجد من نافع أو غير نافع ، ويعرض نفسه للهلاك في سبيله . وترى رجلا ثالثاً صار عبداً لشهواته النفسانية ، يأتي بأعمال تجره الى الهلاك جراً . وترى رجلاً رابعاً قد أهمَّته نجاة نفسه ، فانقطع الى تزكية روحه وترقيتها ، يناصب نفسَه العداء ، ويريد أن يدوس كل ما تتطلع اليه من اللذائذ والشهوات ، ويأبى أن يحقق حاجاتها ، ويجتنب الزواج ، ويأنف الأكل والشراب ، ويجانف اللباس ويبغضه ، حتى إنه لا يكاد يرضى

بالتنفس في هذه الدنيا المملوءة بالمآثم في نظره ، فيأوي الى الغابات والكهوف ويظن ان هذه الدنيا ما ُبنيت له .

هذه أمثلة قليلة لتطرف الانسان في هذه الدنيا ، وإلا ففي حياته صور عديدة لهذا التطرف ، نشاهدها بين كل آونة وأخرى .

وبما أن الشريعة الاسلامية تريد فلاح الانسان وسعادته ، فهي تنبهه الى الحقيقة الثابتة القائلة : « إن لنفسك عليك حقاً » . وهي تمنعه عن كل شيء يضره ، كالخمر والحشيش والأفيون وغيرها من الأشياء المسكرة ، وعن الميتة والدم ولحم الخنزير وغيره من الوحوش الضارية والمسمومة والحيوانات النجسة ، فان لهذه الأشياء تأثيراً سيئاً في صحة الانسان وأخلاقه وقواه العقلية والروحية ، وتحل له بدلا منها الاشياء المفيدة الطيبة ، وتقول له : لا تحرم نفسك من التمتع بها فان لجسدك عليك حقاً .

وهي تنهاه عن العري ، وتأمره ان يتَمتَّعَ بما قد أنزل الله له من الزينة في هذه الدنيا ، ويستر من جسده الاعضاء التي يعد من الوقاحة الكشف عنها .

وهي تأمره بالجد في كسب الرزق ، وتقول له : لا تقبع في بيتك عاطلاً ، ولا تمدَّن يدك الى الناس مستجدياً جدواهم ، ولا تلفظ نفسك جوعاً ، واستخدم ما قد أنعم الله عليك من القوى ، واسْعَ بالطرق المشروعة لنيل ما قد خلق الله في الارض والسماوات من الوسائل والأسباب لراحتك وتربيتك .

وهي لا تسمح أن يكبح شهوات نفسه كل الكبح ، بل تأمره بالزواج لقضاء ما في نفسه من الشهوة .

وهي تمنعه عن تذليل النفس وحرمانها من رغد العيش ومتعة الحياة ، وتقول له : إنك إن كنت تريد الرقي الروحاني ، والتقرب الى الله ، والنجاة في الآخرة ، فلا حاجة لك ولا داعي الى ترك الدنيا ، فان ذكر الله تعالى في هذه الدنيا ، مع التمتع بلذاتها ومنافعها ، واجتناب معصيته واتباع قانونه وشريعته ، لهو أكبر وسيلة وأنجعها الى الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة .

وهي تحرم عليه الانتحار ، وتقول له : إن هذه النفس التي قد أوتيتها إن هي الا ملك لله ، قد أودعها أمانة عندك ، لتستخدمها إلى أجل مسمى ، وما أوتيتها لتعبث بها وتقضي عليها بيدك .

حقوق العبـــاد :

أمرت الشريعة الاسلامية الانسان بأداء حقوق نفسهوجسده في جانب ، وأمرته في الجانب الآخر ، الا يؤدي هذه الحقوق على وجه يمس بحقوق غيره من عباد الله في الدنيا . فانه اذا قضى شهواته ورغباته على هذا الوجه ، نجّس نفسه واضر بغيره . فلأجل ذلك قد حرّمت الشريعة النهب والسلب والسرقة والارتشاء والخيانة والتزوير والغدر وأكل الربا ، فان المنفعة التي يكسبها الانسان بهذه الطرق ، إنما يكسبها بجلب الضرر الى غيره في حقيقة الامر . وكذلك حرّمت عليه الشريعة الكذب والغيبة والنميمة والافتراء ، فان هذه الامور أيضاً تجلب الضرر إلى غيره من عباد الله . وكذلك حرمت عليه القمار والميسر واليانصيب ، فان منفعته في هذه كلها ، لاتكون مبنية الا على ضرر الوف من الناس غيره ؛ وكذلك حرمت عليه صفقات

الغش والغرر وغيرها من الشؤون المالية الاخرى التي يمكن أن يصيب الضرر فيها أحدَ الفريقين دون صاحبه . وكذلك حرمت عليه القتل والافساد في الارض وإفشاء الفتنة ، فانه لايحل لأي فرد من أفراد البشر ، أن يقتل غيره أو يصيبه بنوع من الأذى حصولاً على أمواله ، أو إوراءً لغليلة في النفس. وكذلك حرمت عليه الزنا وعمل قوم لوط ، فان هذه الأعمال تفسد عليه صحته وأخلاقه في جانب ، وتؤدي الى تفشي الاباحة والوقاحة والاستهتار في المجتمع في الجانب الآخر، وتفضي بـه أخيراً الى الأمراض الخبيثة فيها وتفسد فيها الأنسال ، وتحدث الفتن ، وتخل بالعلائق الانسانية ، وتزعزع قواعد الحضارة والمدنيـــة .

هذه قيود وضعتها الشريعة الاسلامية على الحياة الانسانية ، لئلا يسلب الانسان حقوق غيره ، أو يبخس منها شيئاً ، أداءً لما عليه من حقوق نفسه وجسده . ولكنه لايكفي لترقية المدنية الانسانية وإسعادها ، ألاّ يصيب الانسان غيره بشيء من الضرر ، بل لابـد لهذا الغرض في الوقت نفسه أن تكون علائق الناس وصلاتهم فيما بينهم ، قائمة على وجه يجعلهم جميعاً متعاونين على الخير، متناصرين على المصالح الاجتماعية، وفيما يلي نذكر لك خلاصة ماوضعت الشريعة الاسلامية من القوانين لهذا الغرض :

أ ــ إن العلائق البشرية تبتدىء بحياة الاسرة ؛ فلك أن تنظر نظرة في حياة الاسرة قبل غيرها . وما الاسرة في حقيقة الامر الا ذلك المجموع الذي يضم الزوجين وأولادهما . فالذي يضع عليـه

الاسلام اساس الأسرة ، هو أنه من واجب الزوج أن يكسب للاسرة ، ويهيّء لها حاجاتها ، ويدافع عن أفرادها ؛ وانه من واجب المرأة أن تدبر شؤون المنزل بما يكسبه الزوج ، وتهيء أكبر راحة ممكنة لزوجها وأولادها ، وتعنى بتربية الأولاد ؛ وانه من واجب الاولاد ، أن يطيعوا ابويهم ويجلّوهما ويخدموهما اذا كبروا . ولأجل ان يبقى نظام الاسرة سائراً على الخير والرشد والصلاح ، فقد اختار الاسلام تدبيرين ، أولهما أن جعل الزوج والأب حاكماً على الاسرة ناظراً لشؤونها ، فانه كما لايمكن أن يصلح نظام بلدة من البلدان ويسير أمرها بدون حاكم قائم على شؤونها ، أو أن يسير نظام مدرسة من المدارس بدون رئيسها ، كذلك من المستحيل ان يصلح ويسير نظام الأسرة بدون من يكون حاكماً عليها ناظراً لشؤونها ، ولا بد أن تعم الفوضى والاضطراب في أسرة يكون كل فرد من أفرادها مستقلاً برأيه ، غير مسؤول عن شيء من أعماله ، وأن ينعدم فيها الهناء والطمأنينة والسكينة . ولا بد لازالة هذه المفاسد ، أن يكون للاسرة حاكم قوّام على شؤونها ، وانما الرجل هو الذي يمكن أن يكون المسؤول عن تربية أهل البيت وحمايتهم .

والتدبير الثاني ، انه قد أمر المراة ، بعدما القى على كاهل الرجل تبعة ما في خارج البيت من الشؤون والمعاملات الا تخرج من المنزل بدون حاجة تعرض لها . وقد أعفيت لأجل ذلك من المسؤولية عما في خارج المنزل من الشؤون ، لتقوم بواجباتها في داخل المنزل حق القيام بكل هدوء وطمأنينة ، ولا يختل نظام المنزل وتربية

الأولاد بخروجها من البيت . ولكن ليس معنى ذلك أن المرأة لايجوز لها أبدا أن تخرج من البيت ، بل قد اذن لها بالخروج منه اذا ما عرضت لها حاجة الى ذلك ، وإنما تريد الشريعة أن يكون البيت هو الدائرة الحقيقية لواجباتها ، ولا تصرف كل ما أوتيت من القوة والذكاء إلا في إصلاح شأن البيت .

وبقربات الدم وعلائق التزاوج تتسع دائرة الاسرة ؛ فالذين يتصلون فيما بينهم في هذه الدائرة ، قد قررت الشريعة لاصلاح ذات بينهم وجعلهم متساندين متناصرين فيما بينهم ، قواعد مختلفة مبنيةً على الحكم البالغة . من هذه القواعد :

١ — حرمت الشريعة بعض الذين يتعاشرون فيما بينهم مختلطين من الرجال والنساء على بعض ، كالأم وابنها ، والاب وبنته ، وزوج الأم وربيبته ، وزوجة الأب وابن زوجها ، والأخ وأخته بالرحم وبالرضاعة ، والعم وبنت أخيه ، والعمة وابن أخيها ، والخال وبنت أخته ، والخالة وابن أخيها ، وأم المرأة وزوج ابنتها ، وأبي الزوج وامرأة ابنه . ومن الفوائد الكثيرة لتحريمها ، ان أمثال هؤلاء الرجال والنساء تبقى علاقتهم طاهرة نقية ، وهم يختلطون فيما بينهم بكل حب ومودة وإخلاص ، من غير كلفة ولا ارتياب .

٢ — وقد أحل الاسلام بعد هذه العلائق، علاقة الزواج بين أفراد الاسرة الآخرين ، ليزدادوا قرابة على قرابتهم وحباً على حبهم . ان الذين يعرف بعضهم بعضهم عادات بعض وطباعهم وخصالهم ، تكون علاقة الزواج بينهم أكثر نجاحاً منها بين الذين لا يتعارفون فيما بينهم ؛

وكثيراً ماتنشأ في التزاوج بين الاجانب ، صور الخصومة وعدم التوافق . ولاجل ذلك قد آثر الاسلام ذوي الكفء على غيرهم للزواج .

٣ ـ وفي الأسرة الغني والفقير ، وذو اليسرة وذو العسرة ، لذا نص الاسلام على أن أكبر ماعلى الانسان من حقوق العباد هو لذوي قرباه ، وذلك مايقال له « صلة الرحم » في الشريعة . وقد تأكد وتكرر ذكر صلة الرحم في القرآن والسنة ، واعتبر قطعها من الكبائر . فان نزلت نازلة بذي عسرة ، فمن واجب الذين يجدون سعة في أموالهم من أقاربه ، أن يغيثوه ويمدوا اليه يد المعونة . كما ان حق الاقرباء في الصدقة قد أوثر على حق غيرهم .

٤ ـ وقد وضع الاسلام قانون الارث ؛ من حيث اذا مات رجل وترك من بعده مالاً ، فلا ينبغي أن يبقى هذا المال متجمعاً مرتكزاً في محل واحد ، بل لابد ان ينال منه كل ذي قرابة نصيبه . فالابن والبنت والزوجة والزوج والأب والأم والأخ والاخت أقرب ذوي الحق للانسان ، ولذا بينت الشريعة أنصبتهم في القرابة قبل أن تبين حقوق غيرهم . فان لم يكونوا موجودين مثلا ، ينال النصيب كلُ من يلهيهم في القرابة ؛ وهكذا تتوزع ثروة الرجل الواحد بين كثير من ذوي قرباه ، ويتمتعون بها جميعاً بعد موته ، فقانون الاسلام هذا لانظيرله في قوانين العالم القديمة ولا الحديثة ، وان كانت بعض الامم قد بدأت اليوم في الدنيا تترسم خطا الاسلام في هذا القانون ؛ ولكن من دواعي الأسف أن المسلمين أنفسهم شرعوا في مخالفته

بجهلهم وسفاهتهم ، وقد عم المسلمين فيأكثر نواحي بلادنا – في قرانا خاصة – مرض حرمان البنات من الميراث ، مما هو ظلم شنيع ، ومخالفة لأحكام القرآن الصريحة الواضحة .

ب – وبعد علائق الأسرة يتصل الانسان بأصدقائه ، وجيرانه ، وأهل حيّه وأهل بلدته ، والذين قد تعرض له الشؤون المختلفة معهم . وقد أمر الاسلام بمعاملة هؤلاء جميعاً بالصدق والعدل وحسن الخلق . ولا تؤذوا منهم أحداً واجتنبوا فحش القول وسوء الكلام معهم ، وتناصروا فيما بينكم ، وعودوا مرضاكم ، واتبعوا جنائز موتاكم ، وإذا أصيب منكم أحد بمصيبة فواسوه ، وأعينوا الفقراء والمحتاجين والعجزة فيكم سرا وخفية ، وتعهدوا اليتامى والأيامى منكم بالعطف عليهم ، وأطعموا الجائع واكسوا العاري ، وانصروا العاطل حتى يجد لنفسه المكسب . واذا كان الله قد آتاكم من فضله ، فلا تنفقوه ولا تسرفوا به في بذخكم وترفكم . وقد حرّمت الشريعة عليكم أن تأكلوا وتشربوا في أواني الذهب والفضة ، وتتزينوا بالملابس الحريرية ، وتضيعوا المال في مواضع البذخ والترف . كل ذلك لان الثروة التي يمكن أن يتمتع بها مئات والوف من عباد الله ، لا ينبغي أن يتمتع ويرفل بها فرد واحد كيفما يشاء وتشاء شهواته ؛ فانه من الظلم أن تبقى الاموال التي يمكن أن يمسك بها ألوف من عباد الله رمق حياتهم ، معلقة في جيدك بصورة حلية من الحلي ، أو زينة لمنضدتك بصورة آنية من الأواني ، أو زينة تفرش بها غرفتك ، أو نيراناً صناعية تضيعها في الهواء . ولكن ليس

معنى ذلك أن الاسلام يريد ان يسلبك كل ما عندك من الثروة ، بل إن كل ما كسبته أو ورثته من أبويك من الأموال ، لك ومن حقك المشروع ، وأنت مستحق أن تتنعم بثروتك ، ويجوز أن ترى في ملبسك ومأكلك ومنزلك ومركبك آثار نعمة الله ، ولكن الغرض المقصود من وراء تعاليم الاسلام ان تعيش عيشة طيبة مقتصدة ، ولا تكثر من كمالياتك ، وان ترعى في كل ما آتاك الله حقوق ذوي قرباك وأصدقائك وجيرانك وأبناء وطنك وأبناء أمتك وابناء آدم جميعاً .

ج ـ ولك أن تخرج الآن من هذه الدوائر الضيقة ، وتنظر في الدائرة الواسعة التي تشتمل على مسلمي العالم جميعاً . فقد وضع الاسلام في هذه الدائرة من القوانين والضوابط ، ما يجعل المسلمين جميعاً متعاونين متناصرين فيما بينهم على الخير والبر والتقوى ، ولا يسمح للسيئات والمنكرات في حدود الامكان بأن ترفع رأسها في الارض . وفيما يلي نشير الى بعض هذه القوانين :

١ ـ أمر الاسلام ، حفظاً للأخلاق الاجتماعية ، بألا يختلط الذين لا يمت بعضهم إلى بعض بالصلات المحرمة من الرجال والنساء فيما بينهم بصورة حرة ، ولتكن للنساء بيئة غيربيئة الرجال ، ولهن أن يصرفن معظم همهن في القيام بواجبات حياة الاسرة ، وان دعتهن الحاجة الى الخروج من بيوتهن فلا يخرجن متزينات متبرجات ، وليخرجن بملابسهن البسيطة ، وليسترن أجسامهن وليسترن وجوههن وأيديهن أيضاً مالم تدعهن الى الكشف عنهما حاجة حقيقية شديدة ، وليكشفن عنهما لقضاء هذه الحاجة فقط ، وهذا ما يقال

له «الحجاب» في الشريعة . ومن جهة أخرى أمر الاسلام الرجال باجتناب النظر الى نساء غير نسائهم ، وإذا وقع نظرهم عليهن من غير قصد ، فليصرفوه عنهن ، ولا يعودوا اليه مرة أخرى ، فإن في ذلك مايعيب أخلاقهم . وان حاولوا مخالطتهن ، فهو أشد عيباً لهم . ومن واجب كل رجل ــ وكل امرأة ــ أن يحافظ على أخلاقه ، ولا يترك المجال لينشأ في قلبه ويخطر ببـاله ميل ولـو خفيف الى قضاء شهواته النفسانية ، بالخروج عن دائرة الزواج المشروع ، فضلاً ان يحاول ذلك ويسعى وراءه سعياً .

٢ ــ وقد نهى الاسلام لحفظ الأخلاق الاجتماعية ، أن يكشف الرجل عما بين سُرته وركبتيه ، وأن تكشف المرأة ما دون الوجه واليدين من سائر أعضاء جسدها ، ولا لقريب من أقاربها الأدنين ، وهذا ما يقال له « الستر » في الشريعة ، ومن واجب كـل رجل وامرأة أن يحافظ عليه . وقد أراد الاسلام بذلك أن تنشأ في الناس مـادة الحياء ، ولا تشيع بينهـم الفواحش والمنكرات ، التي تجر صاحبها أخيراً الى الاباحة والانحلال الخلقي .

٣ ــ لايحب الاسلام من أعمال الطرب واللهو ماكان مفسـداً لأخلاق الناس ، ومنعشاً لشهواتهم السافلـة ، ومضيعاً لأوقاتهم وصحتهم وأموالهم . ولا شك أن اللهو شيء ضروري في حـد ذاته ، ولا بدَّ منه مع العمل والجد لتنشئة روح الحياة وقوة العمل في الانسان ، ولكن ينبغي ان يكون لهواً ينشيء النشاط ، ويرطب الروح، ولا يكـون لهواً ينغص الروح ويكثفها . أما أعمال الطرب واللهـو

السافلة التي يشاهد فيها ألوف من الافراد معاً الحوادثَ المفروضة لركوب الجرائم ، والمناظر الصناعية للاباحية والانحلال الخلقي ، فان هي الا مما يفسد أخلاق الأمم وعاداتها ، وإن كانت جميلة المنظر تسر الناس في ظاهر الأمر .

٤ ــ وللمحافظة على وحدة المسلمين وسعادتهم الجماعية أمرهم الاسلام امراً مؤكداً أن يجتنبوا التخالف فيما بينهم ، ويبتعدوا عن دواعي التحزب والتفرق . فان اختلفوا في أمر من أمورهم ، فليردوه الى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بكل إخلاص وصفاء نيــة ، ولكن اذا لم يجتمعوا في بابه على شيء ، فليكلوا أمرهم الى الله ، ولا يتنازعوا فيما بينهم ، وليتعــاونوا على أعمــال الفــلاح والسعادة الجماعية ، ويطيعوا أولي الأمر منهم ، ويبتعدوا عن رجال الشر والفتنــة ، ولا يوهنوا قوتهم ، ولا يفضحوا أمتهــم بالحروب الداخلية فيما بينهم .

٥ ــ وقد أذن للمسلين أن يتلقوا العلوم والفنون ، ويتعلموا الطرق النافعة من غير المسلمين ، ولكنهم نُهوا عن التشبه بهم في حياتهم ، فانه لا تتشبه امة بغيرها ، إلا اذا كانت معترفة لنفسها بالذل والهوان والضعة ، وللأخرى بالسبق والعلو والرقي . وهذا من أقذر أنواع العبودية ، وهو اعتراف سافر بالانكسار والانحطاط ، ومــن نتائجه اللازمة أن تنقرض مدنية الأمة المتشبهة المحتذية . ومــن أجل ذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين نهياً شديداً عن اتباع الامم الاجنبية واختيار مدنيتهم . ومما يفهمه كل من أوتي

قليلاً من العقل أن قوة كل أمة لاتقوم على زيّها ، ولا على طراز حياتها ، وإنما تقوم على مالَها من العلوم وجودة التنظيم وقوة العمل . فمن كان يريد القوة والكمال والرقي ، فليتلق عن الامم الاجنبية ما تحصل به الأمم على أسباب قوتها ورقيها وكمالها ، ولا يميلنّ إلى ماتتذلل به الأمم ، وتنضم الى أمم أجنبية وتقضي على حيويتها ومقوماتها أخيراً .

وقد نُهي المسلمون أن يعاملوا غير المسلمين بالعصبية وضيق النظر ، وأن يسبّوا آلهتهم ويطعنوا في كبرائهم ويهنوا دياناتهم . وكذلك نهوا عن أن يبدؤوهم بالمخاصمة . فما دام غير المسلمين يريدون المصالحة والمسالمة مع المسلمين ، ولا يتعدّون على حقوقهم ، فمن واجبهم أن يعاملوهم بالمصالحة والمسالمة . إن مما يوجبه علينا شرفنا الاسلامي ، أن نعامل غيرنا بأعلى مايمكن من عواطف المحبة والمواساة الانسانية والاخلاق العالية ، ومما ينافي أحكام الاسلام وفطرةَ المسلم ، أن نعامل غيرنا بالعصبية وسوء الخلق والظلم وضيق النظر ، فانه ما أخرج المسلم للناس إلا ليكون لهم أسوة يتأسون بها في حسن الاخلاق والشرف وسعة الصدر والصلاح ، وليجلبه قلوبهم بمبادئه الطاهرة المبنية على الحق والعدل .

حقوق سائر المخلوقات :

هذا ونريد أن نبين لك الآن النوع الرابع من الحقوق :

إن الله قد فضل الانسان على كثير من مخلوقاته ، وأذن له أن يتصرف فيها ويُخضعها بقوته ، ويستخدمها وينتفع منها فيما

يريد . وذلك جزء من حقه المشروع ، باعتباره أفضل خلق الله في الأرض . ولكن بإزاء كل ذلك رتب الله على الانسان حقوقاً لهذه المخلوقات . فمنها الاّ يضيعها أو يضرها أو يؤذيها من غير حاجة شديدة ، وإذا ضرّها فعليه أن يضرها بما لايرى لنفسه بدا منه ، ويختار لاستخدامها والتمتع بها أحسن الطرق وأعدلها .

وقد فاضت الشريعة الاسلامية بمثل هذه الاحكام المتواترة ؛ فما أذِنَ للانسان أن يقتل البهائم الا للغذاء أو اتقاءً للمضرة ، وقد نهي نهياً شديداً أن يقتلها من غير حاجة على سبيل اللهو والطرب مثلاً . وقد وضع لقتل البهائم المأكولة طريق « الذبح » ، الذي هو احسن طريق لأخذ اللحم النافع منها . وكل طريق دون طريق الذبح، وان كان أقل منه إيذاءً للبهيمة ، فانه يضيع كثيراً من فوائد اللحم ، وان كان أكثر منه حفظاً لفوائد اللحم ، فانه أكثر منه إيذاءً للبهيمة . والاسلام يتجنب هاتين الناحيتين . ونهى نهياً شديا عن قتل البهائم بالقسوة والايذاء . وكذلك ما أذن الاسلام بقتل الوحوش الضارية والحشرات السامة ، إلا لأن النفس البشرية أجلّ قدراً وأكثر ثمناً من حياة هذه الوحوش والحشرات ، ومع ذلك فهو لايبيح قتلها بالتعذيب والايذاء . وكذلك نهى الاسلام نهياً شديداً عن إجاعة الحيوانات التي نستخدم ظهورها في الركوب أو حمل الأثقال ، وعن تكليفها فوق طاقتها وعن ضربها بقسوة . وكذلك كره الاسلام ان نحبس الطيور من غير حاجة ، بل لايكاد الاسلام يرضى أن نصيب الاشجار فضلاً عن الحيوانات ، بشيء من الضرر ، فلنا أن نقطف

أزهارها وأثمارها ، ولكن لايحق لنا أن نبيدها أو نقلعها من غير حاجة . بل لا يجيز الاسلام فضلاً عن النباتات ذات الحياة ، أن نضيِّع شيئاً لاحياة فيه ، فقد نهى عن صب الماء وإضاعته بدون حاجة

الشريعة العالمية الدائمة :

كل ما بيناه لك آنفاً انما هو خلاصة موجزة لأحكام وقوانين تلك الشريعة البيضاء ، التي أرسل بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالمين الى أبد الآبدين . ولم يُفرِّق بين الانسان والانسان في هذه الشريعة شيء غير العقيدة والعمل . والحق ان جميع الشرائع والديانات التي قد فُرق فيها بين الانسان والانسان ، بناءً على النسل أو الوطن أو اللون ، لايمكن أن تكون شرائع عالمية ، فانه من المستحيل طبعاً أن يصبح فرد من هذا النسل فرداً من ذلك النسل ، كما لايمكن لأهل الارض أن ينكمشوا جميعاً ويحددوا أنفسهم في أرض وطن خاص ، كما لايمكن ان يتغير سواد الحبشي أو صفرة الصيني أو بياض الافرنجي عن فطرته ، فالظاهر ان مثل هذه الديانات لاتنشأ ولا تعيش الا في أمة خاصة من الامم . وبازائها جمعاء ، جاء الاسلام بشريعة عالمية ، يمكن لكل من آمن بعقيدتها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، أن يدخل في الامة المسلمة ، ويتمتع فيها بنفس الحقوق التي يتمتع بها سائر المسلمين ، فانه لا عبرة في هذه الشريعة بالنسل أو اللغة أو الوطن أو اللون .

ثم إن هذه الشريعة شريعة دائمة ، ليست قوانينها بمبنية على

أعراف أمة خاصة أو عوائد زمن محدود ، بل هي مبنية على مبدإ الفطرة التي فطر عليها الانسان . ولأن هذه الفطرة قائمة في كل زمان أو حال ينبغي أن تبقى هذه القوانين التي بُنيت عليها قائمة في كل زمان أو حال كذلك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الفهـــرست

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

***

السعر ١٥٠ ق.س

المطبعة الهاشمية